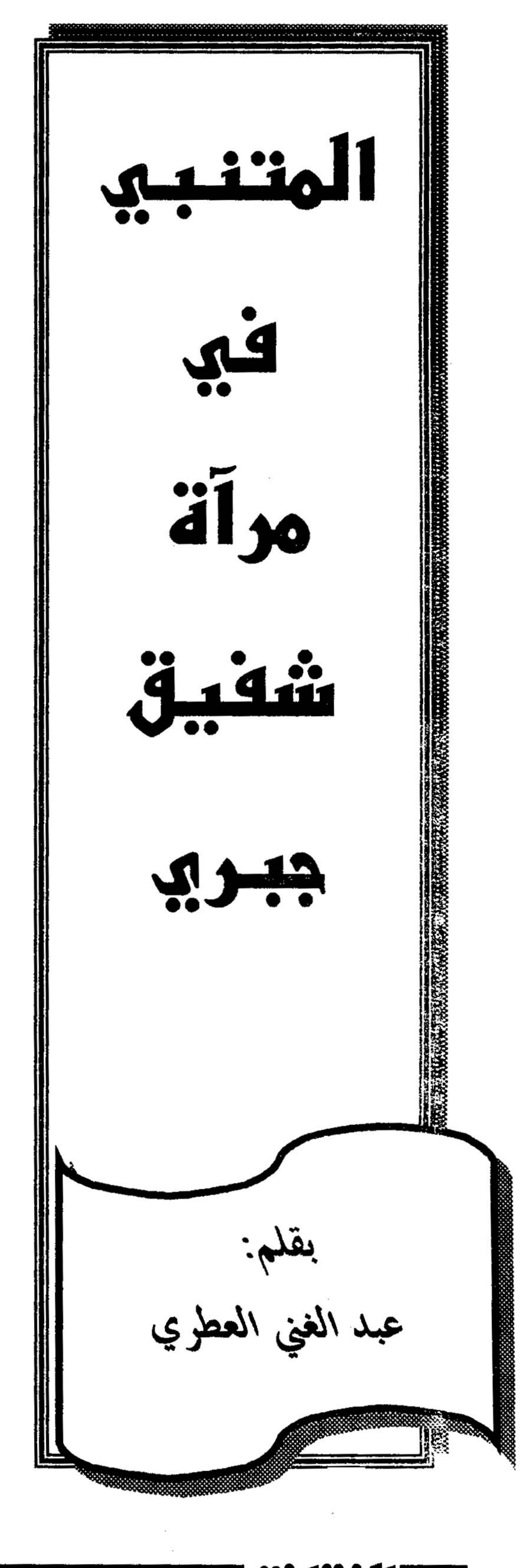


لم أكن قد قرأت المحاضرات الواحدة والعشرين، التي ألقاها شفيق جبري على طلابه في كلية الآداب، خلال العام الدراسي البعيد ١٩٢٩- ١٩٣٠ . ثم جمع شملها في كتابه الرائع عن (المتنبي).

لم أقرأ هذا الكتاب لا لصدور طبعته الأولى، فقد كنت دون سن المطالعة وفي مرحلة الدراسة الثانوية، خيل إلي أن ما نتلقاه على مقاعد الدراسة يكفي لإشباع نهم الطالب الفتي من إبداع الشعراء العشرة ، أولئك الأعلام، الذين كنا ندرس أعمالهم، كنماذج للأدب العربي في مختلف العصور.

بعد السنوات الطوال من صدور هذا الكتاب ورحيل صاحبه في العام ١٩٨٠، قام الأستاذ المربي رؤوف جبري، شقيق أديب الشام الراحل، بإعادة طبع كتاب (المتنبي) . وفعل مثل ذلك بسائر أعمال أخيه، المخطوطة والمطبوعة. وأتيح لي في هذه المرة، أن أقرأ هذا الكتاب، بكثير من الروية والتأمل، فوجدت فيه من المتعة والفائدة، أكثر مما توقعت وسمعت.

قبل كتاب شفيق جبري وبعده، صدر عن المتنبي، أعداد لا حصر لها من الكتب، والدراسات، بأقلام أدباء وشعراء، في شتى أقطار الوطن العربي، غير أن الدراسة التي نحن بصددها ، لا أحسب أن واحدا ممن تناولوا أبا الطيب بالدراسة والتحليل استطاع وضع خير منها.

محاضرات جبري هذه تتناول في تضاعيفها أحاديث سلسة وشائقة.. عن وطن المتنبي، ونسبه، وعروبته. كما تحدث باسهاب في موضوع دراسته. ونبوته، وحياته ، وفلسفته، وملازمته لسيف الدولة الحمداني، طوال تسع سنوات. وتنتهي بالحديث الرائع عن عبقريته.

كل فصل من هذه الفصول، يتناوله المؤلف، الدراسة العميقة، والتحليل المركز، والشواهد التي يقطفها من هذه القصيدة أو تلك.

لنقف على سبيل المثال، عند من يشككون بعروبة المتنبي ووطنيته، ولنقرا ما يقول المؤلف في هذا الصدد:

".. وما قولكم في شاعر يمر بشعب بوّان، بأرض فارس، وهو من متنزهات الدنيا، مشهور بحسنه وكثرة شجره، وتدفق أمواهه، وكثرة أنواع طيره؟

إذا أشرق المحزون من رأس تلعة
على شعب بوان استراح من الكرب

تغنى به الكتاب والشعراء، فوصفوا فيه جداول ماء أرق من دموع العشاق، وأبرد من نفور الأحباب، ووصفوا ترقرق آذيّها، وتدفق تيارها، وتكسر حبابها، من خلال زهر الرياض.. ما قولكم في شاعر يصف هذا المتنزه ويقول فيه:

تلاعب فتنه لو سار فيها
سليما ، لسار بترجمان

ويخلص إلى القول مستدركاً:

ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان

وما هذا الفتى العربي، إلاّ أبو الطيب نفسه.

ويقول المؤلف في مكان آخر: إن المتنبي كان يباهر بكل شيء عربي، يباهر بلسان العرب، وبتيجان العرب، وبسيوف العرب، وصحبته هذه العاطفة الشريفة، حتى آخر نفس من أنفاسه الزكية. لما مدح ابن العميد في أرض فارس، وهنأه بالنيروز، مرح فيه عروبية اللسان قبل كل شيء وقال:

عربي لسانه فلسفي
رأيه فارسية أعياده

وفي حكايا هذه الدراسة المتكاملة يقول شفيق جبري إن المتنبي كان كثير الإدعاء دائم الإشادة بنفسه، (كلمة أنا)، والثناء على النفس، تتردد في ثنايا شعره باستمرار: لنستمع إلى قوله:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صممُ

وكذلك قوله:

وما الدهر إلاّ من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

وقوله:

أنا صخرة الوادي إذا ما ندهت
وإذا نطقت فإنني الجوزاء

ويصف نفسه بأنه المبدع لكل شيء ويقول:

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله
إذ القول قبل القائلين مقول

وفي الحديث عن عبقرية المتنبي، يقول المؤلف الكبير أن المتنبي ينظر إلى

الحب، نظر الفيلسوف المحيط بدقائق هذا الحب، فلا يكاد يخفي عليه أمر من أموره. ينظر إليه نظر الفيلسوف، الذي يعلم أن المرء يعشق عرضاً، من دون أن يدري لماذا يعشق، ولكنه إذا عشق رحل عقله:

وما هي إلاّ لحظة بعد لحظة
إذا نزلت في قلبه رحل العقل

ويتناول جبري موضوع الوصف والتصوير عند أبي الطيب.

ويقف ملياً عند وصفه للحمّى ، التي أحبته وزارته مراراً. ورغم أنها تستحي، فلا تزوره إلاّ في ظلام الليل. ويبذل لها المطارف والحشايا، فترفضها، وتأبى الإقامة إلاّ في عظامه، وتجعل منها مقراً ومستقراً:

وزائرتي كأن بها حياء
فليس تزور إلاّ في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا
فعافتها وباتت في عظامي

ويخلص المؤلف إلى الحديث عن مذهب أبي الطيب في الوصف، فيقول:

"إذا برز المتنبي فإن تبريزه في وصف المعارك، وإذا خلد فإنما يخلد من هذه الناحية ومن ناحية الحكمة، فإذا كان المتنبي شاعر الهجاء، فإنه شاعر الحكمة والمثل، فقد بلا أخلاق الناس، وامتحن الدنيا وعرض الحياة، فاستنبط من هذا كل روائع الحكمة وسوائر الأمثل. فلا خوف على خلود عبقريته، ما دمنا نحتاج في كل عصر من العصور إلى شكوى الدهر والدنيا والناس، وإلى الموعظة والاعتبار، وإلى ما يجري مجرى هذه الأمور وأشباهها. لا خوف على خلود هذه العبقرية، مادامت العربية لغة كثير من الخلق، وما دام أهل هذه اللغة يتمثلون بالأبيات التي تشتمل على صور الحياة بمجامعها: كرمها ولؤمها، وحلوها ومرها، وعزها وذلها، وراحتها وتعبها، وخيرها وشرها، وأملها وبأسها.

ويختتم كتاب المتنبي في طبعته الجديدة بالقصيدة الرائعة التي ألقاها شفيق جبري في المهرجان الذي أقامته الجامعة الأميركية في بيروت في حزيران من عام ١٩٣٥ إحياء لذكرى المتنبي. وتعتبر هذه القصيدة من روائع شاعر الشام وأديبها الكبير. وقد عبر فيها عن مبلغ إعجابه بـ (مالك الدنيا وشاغل الناس) يستهل شفيق جبري رائعته بقوله:

خضل الظل غضة أعواده
أرفيف الربيع أم أعياده؟
أتراه قصيدة في فم الدهـ
ـر يغني بشعرها أفراده

ويخلص إلى القول:

أيها الشاعر الذي ملأ الدنـ
ـيا دوياً مماته وولاده
كل نبت إلى الحصاد ولكن
شعرك الغض لن يحين حصاده

ويبلغ عدد أبيات هذه الرائعة سبعة وستين بيتاً.

زعاق الدهر

محمد موصلي

يُومـــيء الطـــرف والفـــؤاد يخـــونُ
يـــا لســـهمٍ تئـــن منـــه العيـــون
كـــم تبـــدّى علـــى لســـانكَ قـــولٌ
وتمـــاهى وســـاورتكَ الظنـــون
قـــد جفـــاكَ الرقـــاد فـــي كـــل ليـــلٍ
وتشـــكت مـــن الســـهاد الجفـــون
إن تـــراءى الصبـــاح تـــزداد حزنـــاً
حيـــث يـــهفو إلـــى الحزيـــنِ الحزيـــن
يُبحـــر الخـــوف فـــي جفـــون فقـــيرٍ
قـــد تلـــوى وأرهقتـــه الســـنون
ويمـــوت الأنيـــن فـــي الصـــدر حينـــاً
ويلـــفُّ الدمـــوعَ صمـــتٌ دفيـــن
مـــن أراد الحيـــاة مـــن غـــير جـــهدٍ
مـــا عـــلا فـــي فضائـــه الشـــربين
كـــل جـــذعٍ يمـــدّ فـــي الأرض جـــذراً
وأشـــرأبتْ مـــع الســـنين الغصـــون
هـــل تناســـى الـــوداد إلاّ حقـــيرٌ
ألـــفَ الوحـــل واحتـــواه الطيـــن

يتجنّى على المروءة نذلٌ
كل شيءٍ بما لديه يهون
رضع العهر من ضريعٍ وصارت
بين فوديه تستطيل القرون
يعرف الثُغْل من هريرٍ وشوقٍ
واصفرارٍ ينمّ عنه الجبين
كم صديقٍ تورم الغدر فيه
سحَّ منه الصديد والغسلين

* * *

يطأ الصدر والرغائب دهرٌ
أسحمُ الوجه واليدين حرون
أسبل الشوك فوق رأسي وصارت
في نوامي الفؤاد تنمو الشجون
تحت ندف الصعاب أحمل جرحاً
قد يلين المحال حين يلين
كم أطاح الصوابُ يوماً بعقلٍ
وتسامى بغيّه المأفون
لم تنادي الخراف بالذبح يوماً
أو تخلّت عن طعنها السكين
لا تكنْ في الحياة إلاّ قوياً
يُركب البحر إن علاه السكون
يصبح الرأي للحليم عقاباً
حين يطغى على العقول الجنون

إن للحـــق صولـــةٌ حيـــن يصحـــو

مـــن رقـــادٍ ويصـــرخ المســـكين

حيـــن يصـــهو الزمـــان يعبـــث جَعْـــدٌ

فـــاغر الشـــذق أحمـــقٌ رهـــدون

لـــي علـــى الأفـــق مـــن ندائـــي أعـــاصيرٌ

ومـــزنٌ مـــع الرعـــود هتـــون

انظـــري كيـــف طوقتنـــي رمـــال الشـــط

شـــوقاً وصفّـــق الدلفيـــن

انظـــري كيـــف عـــانقتني أزاهـــير

الـــبراري وغـــرّد الحســـون

راقبـــي مســـحف الأفـــاعي علـــى كـــل

دروبٍ مثيـــاء فيـــها المنـــون

مضجعـــي فـــوق صخـــرةٍ ألبـــدت فـــي

القفـــر واجتـــاح عريـــها كـــانون

ســـخرت مـــن غـــارق الخَـــزّ يرتـــاح

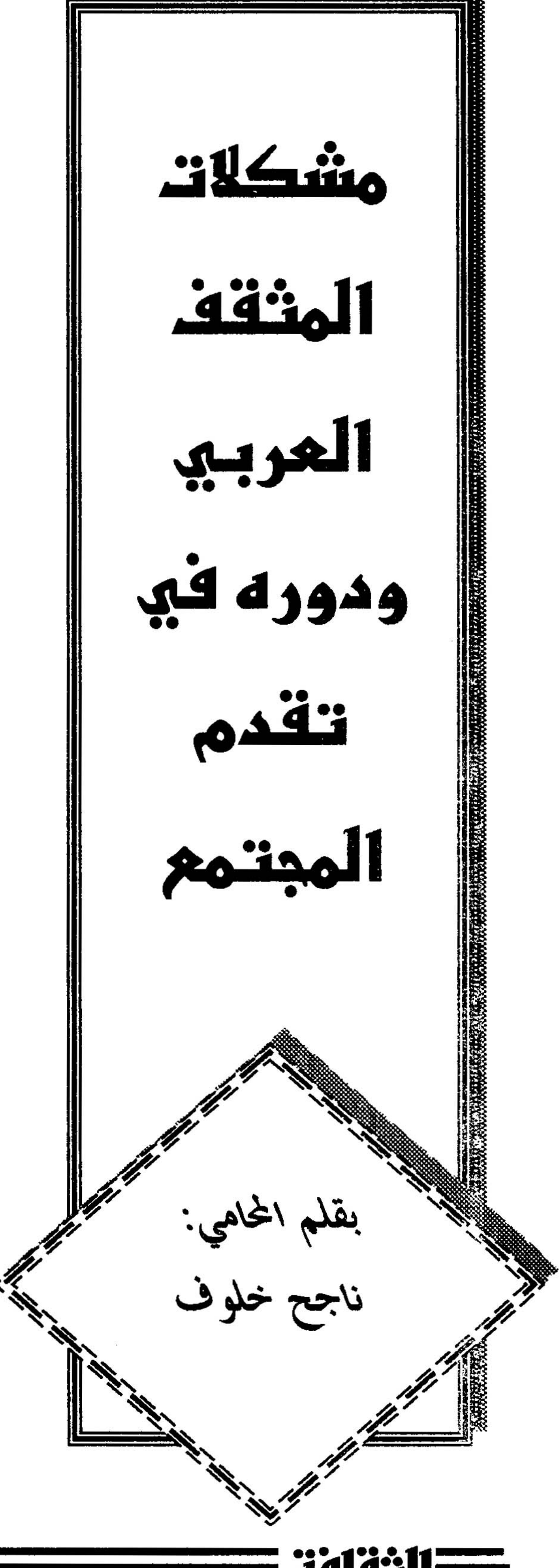
عليـــها مختـــثٌ عنّيـــن

مـــا حـــذاري إذا العقـــارب ســـارت

وحـــذاري متـــى وأيـــن تكـــون

لـــن يُـــذلّ الـــتراب مـــادام يحـــوي

فـــي ثنايـــاه صـــادقٌ وأميـــن



لو رَجِعنا بأفكارنا إلى بداية النصف الثاني من القرن العِشرين، أي لعام ١٩٥٠، حيث كانت الحربُ العالميةُ الثانية قد حطت أوزارها، وقد تأسست هيئةُ الأممِ المتحدة، التي تعهدت بميثاقِها معالجةَ مشاكلِ الدولِ بطريقةٍ سلمية، منعاً لتكرارِ الحروبِ والويلات. ثم صدر الأعلانُ العالميُ لحقوقِ الإنسان، الذي ساوى بين الناسِ في الحقوقِ والواجبات، وبين الأفراد ذكوراً وإناثاً، بغضِ النظر عن الجنسِ واللونِ والعرقِ، واللغةِ والأقليمِ والقومية وما يتبعُ ذلك..

لو رجعنا إلى ذلك الميثاق والأعلان، لَقُلنا وخاصةً في تلك الفترة حتى أواسط السبيعينات، لقد نزلت العدالةُ من السماءِ إلى الأرضِ، ودخلت المسرةُ قلوب الناس، وساداً على الأرض السلامُ. إنه عصرُ الإنسانِ الجديدِ المتحضر، عصرُ انتصارِ الفلسفةِ الإنسانية، عصرُ الحق والعدل والسلام.

نعمْ هكذا ظنَّ أكثرُ الفلاسفةِ والمصلحين والسياسيين والجماهير الشعبية أيضاً، فاستبشروا خيراً، وهلّلوا للتحررِ والحريةِ والديمقراطية، وأمِلوا بعهدٍ جديدٍ، سيجعلُ من الإنسان قيمةً عُليا لا تدانيها قيمةٌ أخرى، وسيصبحُ العيشُ رغدا والحياةُ جميلةً، ويعمُّ النعيمُ والرخاء العالمَ، حيث ينتفي العذاب والألم، وتلغى كلمة الحروب من القاموس. كان كلُ يومٍ تطلعُ فيه الشمسُ تتقدمُ البشريةُ خطوةً نحو النورِ والتقدمِ والحضارة. وعم التفاؤلُ الناسَ جميعاً، وكأنهم خرجوا من كهفِ أفلاطون المظلم

إلى النور، فرؤوا الحقيقةَ بـأجلى معانيـها. وهكذا كان شعورهم.

ولم يكنْ يخطرُ ببال أحدِ من هـؤلاء الناس، أنَّ أياماً سوداءَ قادمةٌ، تحملُ معها ما هو أشد مِن الحرب، تحملُ الطاعونَ وتطفِئُ الشمسَ، تخفِ ضوءَ القمـر وتَـذِلُ وتقتـل البشرَ دون حساب، كما حدثَ فـي أواخـر القرنِ العشرين، وهو الآن مستمر بوحشـية شرسة ولا يزال فـي فلسطين والعـراق ويوغسلافيا وافغانستان، وفي دولِ أخـرى كثيرةٍ.. فالويل والثبـور وعظـائمُ الأمـورِ لأبناءِ البشريةِ جمعاء من الغولِ الأمريكـي، ومن يماشيه، والـذي لـم يكـنْ انتصـاره بالحُسبان، ولم يكنْ أحدٌ يتوقعُ منه كلَّ هـذه الشرور التي يوقعُها فـي العلـمِ، وخاصـةً بشعوبِ العالمِ الثالثِ المستضعف. ذئبٌ يأكلُ شاةً..

إني أوجـه كلامـي إلـى المثقـفِ العربي، الذي يعتبرُ حادياً للجماهيرِ العربيـةِ وقائداً لمسيرتها، وموجهاً لها، وهو الدليـلُ العاقِلُ الذي يعرفُ أكثرَ من غـيره سـواء السبيل، من أجلِ النـهوضِ بأمتـه وشـعبهِ ووطنهِ نحو مصـافِ الأُمـمِ المتحضـرة. فبالعلمِ وحدِه ترقى الشعوبُ وتتقـدمُ الأممُ. قال الشاعرُ:

بالعلم يرقى كل شعب للعلا

وهو الركيزة للحضارة في الأمم

إنني أتناولُ في هذا المقالِ مشـكلات المثقفِ العربي، ودوره في تقـدمِ مجتمعـهِ ولتوضيحِ هذا الموضـوعِ لا بـدَّ أولاً مـنْ تعريفِ معنى الثقافةِ، وكيفَ يصبحُ الإنسـان مثقفاً، وما هو الهدف من ذلك وحاجتهُ إليها؟ وكيفَ يستفيدُ من ثقافتِه ويسخرُها من أجـلِ مصلحتهِ، ومصلحة الوطنِ والإنسانية؟ ومـا هي العوائقُ التي تعترضُ طريقَه في سـبيلِ تحقيقِ تلك الأهداف، وكيفية التغلبِ عليـها، ليؤدي رسالتَه، ويقومَ بمهمتِـه فـي سـبيلِ مجتمعه؟ والسير به نحو العلمِ والحضـارةِ والعصرنة، ليساهمَ في بناءِ مجتمعٍ حديـثٍ، وحضارةٍ راقية، تكون فخراً لأمتهِ، ومجـداً لوطنه.

المثقفُ لغةً: هو الإنسان الذي يجيدُ الكلامَ، ويُحذقَـه ويفهمُـه بسـرعةٍ، وهـو المتمكنُ من العلومِ والفنونِ والآداب (هذا مـا جاء في معجم المنجد) .

أما الثقافةُ فـهيَ ماديَـةٌ وروحيـةٌ، فالثقافةُ الماديةُ هي جملةُ الخـيرات الماديـةِ ووسائل انتاجها، والثقافةُ الروحيةُ هي كافـةُ أشكالِ الوعيِ الاجتماعي من فلسـفةٍ وعلـمٍ وأخلاقٍ وفنٍ وحق، وما فـي حكـمِ هـذه المفاهيم.

والمثقفُ الحقيقيُ هو الـذي يـدركُ ويفهمُ حقائقَ القوانين التي تتحكمُ في عـالمِ المادةِ والمجتمعِ والفكرِ والسياسـةِ، ويعمـلُ على التأثير فيها مـن أجـلِ التحكـم بـها وتغييرها والسير بها لصالحِ الانسان، كفـردٍ ومجتمعٍ ودولةٍ، ومن أجلِ الانسانية وسـيادة الحقِ والعدلِ والخير والسـلام، لمصلحـةِ هؤلاء جميعاً.

والمثقفُ - ايضاً- هو الذي يقـولُ (نعم) للحقيقة و (لا) لغيرها، هو المخلـصُ لمبدئه ولمنظمتِه السياسـيةِ والاجتماعيـةِ،

والذي ما ينفكُ ينقدُها باستمرار، لينقيها من كل شائبةٍ تشوبها أو عيب يصيبُها، لأنه بانتقاده لها يطوّرها وينضجُها ويكملُها، ويحافظُ بذلك على حريتِه تجاهَها، لا أن يبقى عبداً لها يؤيدُها بشكلٍ مطلقٍ، وفي كلِ حين وباستمرار، فيصبحَ ذا عقليةٍ متحجرة، متخلفةٍ عن الحقيقةِ التي تنمو باستمرار، كشجرة خضراء وارفةِ الظلال. وإذا لم يضعْ المثقفُ نفسَه موضِعَ محاكَمةٍ كما يُحاكِمُ الناسَ، فليس هناك من حريةٍ أبداً.

وبقدرِ ما يحصِّلُ المثقفُ من معرفةٍ في تلك الميادين وبقدرِ ما يمارسُها ويطبقُها، بقدرِ ما يحققُ أهدافَه وغاياتِه، وكلما اقتربت الممارسةُ من النظريةِ كلما تجلَّت الحقيقةُ، وكان تأثيرُه كبيراً ومفيداً وناجحاً، ويقالُ عند ذلك مثقفٌ حقيقيٌ بارزٌ وعظيمٌ.

كيف يصبح الإنسانُ مثقفاً؟

يولدُ الطفل صفحةً بيضاء، لا يحمِلُ شيئاً من العلمِ والثقافةِ، لكنه يحمِلُ استعدادات وقوى تختلفُ من طفلٍ إلى آخرَ بنتيجةِ الوراثةِ، والعواملِ الأخرى المكتَسبةِ التي تؤثرُ فيها الظروفُ بدءاً من تلقيح البويضةَ مروراً بظروفِ الحملِ ثم الولادة، ثم يأتي دور الأسرةِ والمدرسةِ والجامعةِ والمجتمعِ الكبير. وهكذا يبدأ تكوُنُ الإنسانِ جسدياً وعقلياً، فيتعرفَ إلى أمهِ وأبيه وأخوتهِ ثم أقربائه فأبناء محيطه.. فيتعلمَ اللغةَ أيضاً، بدءاً من بسائطِها حتى آدابِها، وكذلك العادات والتقاليدَ وما إلى ذلك من أمورٍ كثيرة تؤلفُ شخصيته إلى أن يكتمل نموُّه، ويبلغَ الرشدَ، ضمِنَ هذه الظروف تتبلورُ تلك الشخصية وتتميزُ أيضاً عن غيرِها، وهكذا كلُ فردٍ من أفرادِ المجتمعِ ينفرد بشخصيةٍ تختلفُ عن الأخرى للأسبابِ المذكورة، وان تشابهت شخصياتُ مجتمعٍ معين، فهي تختلفُ في كثيرٍ أو قليلٍ عنِ شخصياتِ مجتمعٍ آخر. فللعربي شخصيته المميَّزةُ عن شخصيةِ الأفرنسي والروسي والأوسترالي، نظراً لاختلافِ مزايا تلك المجتمعات بعضها عن بعضٍ وهذا أمرٌ طبيعيٌ.

وهكذا يبرزُ دورُ الأسرةِ في تربيةِ أبنائها، ثم تشتركُ المدرسةُ في ذلك وذلك للمناهجِ المدرسيةِ وللمعلمين والمربين وللمواضيعِ والبحوث التي تدرس، فهي كلُها تلعبُ دوراً أساسياً في تثقيف الإنسانِ، وللجهدِ الفردي- لكل شخصٍ- دورٌ هام جداً في تكوينِ ثقافته وشخصيتهِ المميزة.

والمثقفُ يستفيد من ثقافتِه في خلقِ شخصيةٍ متميزٍ ومتزنةٍ وعارفةٍ، فينعكسُ ذلك في سلوكِه الخاص والعام، ومع الناسِ بصورةٍ إيجابية، ويكون قدوةً للآخرين، ولأبناء مجتمعه ووطنه، فيساهِم في نجاحِه وتقدُّمِه .

وهؤلاء المثقفون، وحدُهم مسؤولون عن قيادةِ الوطن، ومصلحةِ الأمةِ والقوميةِ، وهم خطُّ الدفاعِ الأولِ عنها، وعن قيمِها ومثلِها ومجدِها، فإن كانوا مثقفين حقيقيين – كما ذكرت- تقدمَ الوطنُ وازدهرَ، وإن تخازلوا عن مهامِهم وانحرفوا عن سواء السبيل، وكان مصيرُ الأمةِ التخلفَ

والضعف، والقهرَ والذل وربما الزوال.. فقد زالت أممٌ كثيرةٌ عن وجهِ الأرضِ، وتكونت أممٌ كثيرةٌ أيضاً.

ربما يعترضُ المثقفُ على ما حمّلته من مسؤوليةٍ. قائلاً:

إن] مُسلّمٌ بكل أقوالك، وما جئتَ به من تحليل، ومقدمات وما أسندتَ إليّ من مسؤوليةٍ، لو لمْ تكنْ هناك مشكلاتٌ جمةٌ كثيرة، تقفُ في سبيلِ القيامِ بالدورِ الرائدِ، والحريةِ والديمقراطية، وما إلى ذلك، لكنَّ الصعابَ لا تحصى ولا تعد، كلُّها تحولُ دون الغايةِ المرجوة، أو على الأقل تثبطُ الهمةَ دونها وإنني سأوضح أهمَّها:

- فسيادة النظمِ الاستبدادية في البلاد العربية- إلاّ أقلَّها- ، فعلى رأسِ كل نظامٍ حاكمٌ أوحدٌ مستبدٌ، له الكلمة الأولى واخيرة. فهو يرى نفسه مميزاً عن أبناءِ شعبهِ ولا يقدرُ القيم الإنسانية، جاءَ إلى الحكمِ غصباً عن إرادة الشعب، وجبراً عنه، أما بالقوة، أو بالمراوغةِ والاحتيال، وفي كل الأحوال يأتي بالقوة مهما تكن الأساليب، ومهما تعددت الطرقُ والشكليات، وبالتالي فأنظمةُ القوةِ هي شريعةُ الغاب، التي تناساها العصرُ، وأصبحت لدى أكثرِ أممِ الأرضِ تراثَ الماضي البعيد، فقد عَرَفَت الشعوب الحيَّة- كاليونان مثلاً- الحكمَ الديمقراطيَّ قبل الميلاد، وجاءت الثورة الأمريكيةُ والفرنسيةُ فنشرت مبادئ الحقِ والعدلِ والحريةِ والمساواة في أقطارِ الأرضِ، وسادت الحريةُ والديمقراطيةُ لدى أكثرِ شعوبِ العالمِ، بينما لا تزال أنظمةُ الحكمِ العربيةِ تغطُّ في نومٍ عميقٍ، وفي جهلٍ وظلامٍ دامس، بعيدة عن تلك المفاهيمِ المتحضّرة- فأنظمتهُ محرفةٌ عن مضامينِها، جمعياتٌ واحزابٌ مفرغةٌ من محتوياتها أسماءٌ دون مسميات، وهي لا تتجاوز العناوينَ والكلمات، ولا أثرَ ولا مفعولَ لها في واقعِ الحياة، كلُّها تؤيدُ النظامَ الذي تعيشُ فيه.. وهي من صنعِه أيضاً، وكلُّها تقدس الحكمَ وتغني وترقصُ وتطبلُ له، ولو كان في ذلك حتفها ويصدق فيها قولُ الشاعرِ معروفِ الرصافي:

علمٌ ودستورٌ ومجلسُ أمةٍ
كلٌ عن المعنى الصحيحِ محرّفُ
اسماءُ ليس لنا سوى ألفاظُها
أما معانيها فليست تُعرَفُ

وحال حكّامِها - بعد تحررها من الاستعمار- ليس جيداً

وظلمُ ذوي اقربى أشدُ مضاضةً
على المرءِ من وقعِ الحُسامِ المهندِ

والويلُ والثبور وعظائمُ الأمور، لو أبدى مثقفٌ رأيَه، أو تكلمَ بما يعتقدُ به، أو لو اصدرَ حزبٌ ما بياناً، ولم يكن فيه غناءٌ له في كلِ مقطعٍ منه، فالاعتقالُ مصيره، والسجنُ مأواه، ناهيك عن دعسِ كرامتِه وازدرائه، وربما يأخذُ السيفُ طريقَه إلى عنقه. إن تصفياتِ الثوارِ في الوطنِ العربي ليست قليلةً. وكلُ ذلك تقوم به الأنظمةُ العربيةُ باسم الحقِ والعدلِ والعروبةِ والوطنِ- والحق منه براء- ليبقى الحاكمُ على كرسيِّهِ، لا يفسح المجال لغيره، ضارباً عرضَ الحائطِ بالشعبِ ومصالحه، بل

محتقراً شعبه كلَّ الاحتقـــار، لا يعتـبرُه ولا يثقُ به، ولا يستشيرُه في صغيرة أو كبـيرة، ولا يقيمُ لوجودهِ وزنا. فليس هناكَ من أحـــد غيرُه.

ولأنظمةِ الحُكم هذه مؤسساتٌ كثيرةٌ، قامَ هو بتأليفِها، كالدستور والقانون والأنظمة الأخرى، جعلها جميعاً تعمل لمصلحته، ومن أجل بقائه وديمومته وسخر لها جميعَ وسـائلِ الإعلام من (تلفزيـــون وإذاعـــةٍ وصحـــفٍ ومجلات، وجميع وسائلِ الدعايةِ الآخـــرى) التي لا تحصى ولا تعد. وإن كلَّ من يخالفُ شرائعه يوصمُ بالنذالةِ والخيانةِ والباطلِ باسمِ الحق! فكيفَ تحمِلُني يا أخي مسؤوليةَ قيـادةِ المجتمـعِ وتثقيفـه، ودفعـهِ نحـو التقـدم والعصرنة، وأنا المثقفُ فقيرُ الحالِ مدقَعـــا، باعَ أهلي كلَّ ما يملكونِ حتى تعلمتُ وتثقفتُ كي أعيلَ نفسي، وأردَ لهم بعضَ الجميـــل؟ وكيف أدفع بنفسي إلى التهلكةِ المؤكدة؟!

وان اقتنعتُ بأقوالك وضحيتُ، فمنْ يكون لأمي الثكلـــى، ولزوجتـــي الأرملـــةْ، ولأولادي اليتامى؟ ! وفي أبســـطِ الأحـــوال وإذا تفاءلتُ واكتفي بسجني فقط بألا يكـــون مصيري مصيرَ الشاعرِ الحطيئة عندما القـاه الخليفةُ عمرُ في السجن؟ حيـــن اســـتعطفه، وأرسل له تلك القصيدة التي قالَ له فيها:

ماذا أقولُ لأفراخٍ بـــذي مـــرخٍ
ذغبُ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ
القيتَ كاسبَهم في قَعرِ مظلمَـــةٍ
فاغفرْ عليكَ سلامُ الله يا عمـــرُ؟

ولكن ليس كل مثقف شاعراً ، وليس كلّ حاكمِ عمرا

اضف إلى كلِّ ذلك أو تحسبُ كـــلَّ المثقفين؟ وغايتـــهُم فقـــط مصلحـــةُ الأمـــة والشعبِ والوطنِ والإنسانيةِ؟

إني سأعرِضُ عليك وجهةَ نظـــري في كثيرٍ من المثقفين، الذين يحسبُهم أكـــثرُ الناس هكذا، إنِ هؤلاء أكثرُ النـــاسِ عـــداوة للشعب، وتحيزاً وتملقاً تلك الأنظمةِ الجـائرةِ، ولسادتِها الظلاّم، وهم مع الحـــاكمِ الظـــالمِ المستبدِ ضدَّ الأمةِ والوطنِ والشعب. هـــؤلاء هم عبيدُ تلكَ الأنظمةِ وحراسُـــها الأوفيـــاء يضعون كلَّ ثقافتِـــهم وعلمِـــهم وخبراتِـــهم فـــي خِدمـــةِ أسـيادهم الحكـــام، لا مـــن أجل الشعبِ، بل من اجـــلِ تلـــك الأنظمـــة ولبقائها واســـتمرارها. فـــيزينون سـلوكها ويعصمـــون تصرفاتِـــها، فتغـــدو وكأنـــها الحكمةُ بذاتِـــها، والحقيقـــةُ خالصـــةً نقيـــةً صافيـــةً، غايتُـــهم البقـــاءُ فـــي مناصبِـــهم وعلـــى كراسيِّهم، متطلعيـــن باســـتمرار نحو المراتـــبِ العليـــا، متســـابقين إليـــها، غير عابئين بمصالحِ الأمـــةِ والوطـــنِ، ولا يعرفون معنى الإنسانية إلاّ بالكلامِ الكـــاذبِ. هؤلاء كثيرون جداً ، وهـــم أخطـــرُ عـــدو للشعبِ والوطنِ.

فلو تذكرنا أن الاســـتعمار بأشـــكاله المختلفة ما حكم بلداً إلاّ بأبناء ذلـــك البلـــد المتملقين، وهم المثقفون الذين أتحدث عنـــهم، فتصورا لو لم يتعاونِ هؤلاء مع المستعمرين لما استطاع حكمَ أيِ بلدٍ في العالم.

ألمْ يحررْ (المهاتما غـــاندي) الـــهندَ بالكفـــاحِ الســـلبي، وبمقاطعـــة الـــهنود للمستعمرين الإنكليز، ورفضِ التعاون معـــهم

وعدمِ شراءِ بضائعهم، وكــان الــلا عنــف اسلوباً ناجحاً.

نعم هكذا تحــررتِ الــهند. وكــان نضالُها طريقةً جديدةً ومفيدةً.

فلماذا لا نفعل هكـــذا مــع العــدو الإسرائيلي؟

– ماذا أقــولُ عــن المثقفيــن الانتــهازيين المتملقين، الذين يصلون إلى الســلطة بمــا يملكون من مواهبَ الدهاءِ والرياءِ والكــذبِ والتمثيل؟

يقولُ عالمُ الاجتماع (عبد الرحمــن بن خلدون) في مُقدمتِه المشهورة:

(في أن السعادةَ والكسبَ إنما تحصلُ غالباً لأهل الخضوعِ والتملق) ..

إن ســبب ذلــك هــو أن الجــاه – السلطةَ– يفيدُ المالَ لما يحصلُ لصاحبِه مــن تقرب الناسِ إليه بأعمالِهم وأموالِهم، ويدفــعُ المضارَ ويجلبُ المنافعَ .

وقد اشتهر بين الناس أن الكاملَ فــي المعرفةِ محرومٌ من الحظ، وبالتالي يرتفــعُ كثيرٌ من المرتزقةِ إلى أعلى المراتبِ بسـببِ ذلك، فتضعفُ الأمةُ ويتخلفُ الوطنُ ويـؤذَن بالخراب.

وقالَ شتيرنر الألماني: (حفنةٌ مــن القوةِ خيرٌ من كيسٍ من الحق) .

وقال الشاعرُ (روجــر شــامِ) : (إن الغشَ والكذبَ والنفاقَ والمداهنةَ أمورٌ أربعــةٌ لا بد منها للوصولِ إلى الفضيلةِ والنعمـــةِ، وإذا كنتَ مجرداً من هذه الصفــاتِ الأربــع فالأولى بك أن تعودَ– أيــها الأخُ الطيــبُ– إلى بيتِك) .

– وهناك صنف من المثقفيـــن بعيــدُ عــن الشعب، فلا يخالطُه ولا يعـــرف ظــروفَ حياتِه وعيشه، متعالياً عليه، رافعـــاً أنفَــه، يمشي في الأرضِ كبرا وصلفا، معتداً بعلمـه وثقافته حتى أصيبَ بالخيلاء، يحسب نفســه ذا دمٍ أزرق مميز كمـــا يظـنُ الصــهيوني والنازي نفسَه فهو أرفعُ مكانــةً، إن هــؤلاء المثقفين لا يقدمون شيئاً مفيــداً للنــاسِ، ولا للوطن أيضاً ، وهؤلاء مكروهون من النــاسِ ومبغضون، بعيدون عن قلوبِــهم يشــوهون سمعة المثقفين الحقيقيين ويسيؤون إليهم بمــا فيهم من عيوبٍ، كمـــا هــم عليــه بعــضُ اصحابِ المهنِ العلميةِ الحرة عندما يخونـون رســالتَهم المهنيــةَ والانســانيةَ المقدســةَ ويستغلونها خلافَ ما هي عليــه، بــالكذبِ والنفاقِ وسرقةِ الناسِ زوراً وباطلاً وأفكا.

– وكم من المثقفيـــن يفعلــون خِــلافَ مــا يقولون، فينــادون بالحريــةِ والديمقراطيــةِ والعدلِ والحقِ والمساواة وما إلى ذلك، مــن قيمٍ ومُثلٍ عليا، وعندما أوصلتْهم ظروفُــهم إلى سدةِ الحكم انقلبوا على كلِ هــذه القيـم، ولبسوا رداءَ السلطة التي كانوا ينتقدونَــها، فانفردوا بالحكمِ، والتسلطِ والظلــمِ، همــهُم السلطةُ وجمعُ المالِ بأيــةِ وســيلةٍ كــانت، مطبقين القولِ الشهير (الغايةُ تبرر الوســيلةَ) متنكرينَ لمبادئهم وعقائدهم، وللشعب الــذي كانوا ينادون باسمه ومن أجلهِ. هؤلاء هــم المنافقون، الذين يفعلون خلافَ ما يقولــون. إن الشعب لا يثق بهم، ولا يحترمُــهم وقــد يُفقدونَه احترامَ المثقفين الحقيقيين عندمـــا لا يستطيعُ التمييز.

- ولبعض المثقفين آراءٌ مترددةٌ ومزدوجةٌ، بل ذاتُ وجوه كثيرة، فهم لا يَثبتون عندَ رأيٍ أو نظريةٍ أو مبدأ، حتى بالنسبةِ للخطوطِ العريضة، فينقلبُ اليساري يمينيا، والماديُ روحياً، والصادقُ كاذبا، والمستقيمُ أعوجا والاشتراكيُ رأسماليا، وقسْ على ذلك.. هؤلاء هم الانتهازيون الأنانيون، يميلون معَ النعماء كيف تميل، إنهم لا يَصلحون لقيادة المجتمعِ، وكأنهم لم يقرؤوا سِيَرَ المناضلين أمثال (غيفارا وديمتروف وماو وغاندي) وغيرهم ممن ضَحّوا بأرواحم من أجلِ وطنِهم أو قرؤوا ولم يلتزموا، فبئس معرِفة بلا عملٍ ولا التزام.

- ومثقفون آخرون آثروا البقاءَ وراء مكاتبهم وأمامَ مكتباتهم، يقومون بدراسة الكتبِ حَسْبَ اهتماماتِهم واختصاصاتهم، ثم يقومون بتأليفِ الكتبِ، فيتعسروا بطبعها ونشرها، فلا تصلُ إلاّ إلى قلةٍ من الناسِ لأسباب كثيرة، من ضعفِ القدرة الشرائية لدى المثقفين، وغلاء الكتاب وربما الاستغناء عنه بسبب تقدمِ الاتصالات الحديثةِ وعصرنة الأعلام، وما يقدمُ من ثقافات ومعلومات سهلةَ المنال أكثر من المطالعةِ والدراسةِ في الكتاب.

وإن المؤلفين والناشرين يعرفونَ تفاصيلَ ذلك تماماً. فالتلفزيونِ والمذياع والأنترنيت وغيرها.. تقدمُ معلومات بيسر وسهولة، وبالتالي فلا يقتني الكتابَ إلاّ القليلون، وقد يُحجِمُ الكثيرون عن طباعةِ ونشرِ مؤلفاتِهم، فتذهبُ ثقافتهُم سدى دونِ أيةِ فائدة.

- وفريقٌ آخرٌ من المثقفين يغلبُ عليه الخوفُ من ملاحقةِ السلطةِ له ومعاقبته على ابداء رأيه، بما تملك من وسائل كثيرة، وإذا كان موظفاً فقد تحرمُه من لقمةِ عيشه بتسريحه، فيتعطل عن العمل، وقد تصلُ العقوباتُ للمعارضة في بعض الدولِ إلى التصفية الجسدية، وهو يرى كلَّ ذلك ويسمعُ، فيؤثرَ السلامةَ والأمنَ على أن يصدر كتاباً فيه حتفه، أو سجنُه على الأقل، أو النيلُ من كرامتِه، كما حدث لكثيرين من المفكرين والأدباء والكبار .. فماذا ينفعُ المرء لو ربحَ العالم وخسرَ نفسَه.

- وماذا أحدثك يا أخي ! عن المثقفين الذين ملأت عقولَهم بالخرافاتُ والأساطيرُ، وأصبحوا يتعاملون مع الأبراجِ والحكايات؟ وتمسكوا بعادات قديمةٍ جداً عفى عليها الزمنُ، ولم تعدْ تَصلحُ لهذا العصرِ وتناقِضُ المنطقَ، وقوانينَ العقل، وهم رغم ذلك يتمسكون بها ويقولون: لا حضارةَ ولا تقدم دون الاعتماد عليها، وإذا ناقشتَهم أخرجوك عن كلِ القيمِ والمثلِ والأخلاقِ، إلى درجةِ احلال سفك دمك.

- وكم من المثقفين نقلوا نظرياتٍ وثقافات غريبةٍ وشرقيةٍ فشوّهوها بالنقلِ والتفسيرِ والتطبيقِ، بدلاً من جعلها تلائم أوضاع أقطارِهم فأعطوا صورةَ مشوهةً عن تلك النظرياتِ والمفاهيمِ العصريةِ والحديثة، كالحريةِ والديمقراطيةِ والاشتراكيةِ والماديةِ وأمثالِها، فأبعدو الناسَ عنها، بل كرّهوهم

بها. فإن بعضَ الأنظمةِ العربيةِ التي أخذت بهذه المفاهيم، لا سيما الاشتراكية أوحت إلى الشعب بأن تطبيقها سيحققُ العدل والمساواة والحريةَ والكفايةَ للجميع، ولكن الواقع لم يكن بمستوى النظرية - وإن اصابت نجاحاً- فاستغل أعداؤها نقطاً ضعفها.

وأودُّ أن ابدي ملاحظةً أخيرةً، فقد أطلتُ في تعداد المشكلات والعراقيل التي تقللُ من عدد المثقفين الحقيقيين، أو التي تثنيهم عن القيامِ برسالتِهم الحقيقية. أقول:

إن لا أحداً من الناس ولا من الشعب أيضاً كلَّفَ المثقفَ، أو خولَه أو أناطَ به تلك المسؤولية التي حمّلتَها له، كما أن السلطة لم تكلفْه بذلك ولم يوكلْه أحدٌ بتلك المهام، فكيف يُوكِل نفسَه دونِ إرادة هؤلاء؟! وإذا تصرفَ ونجحت نظريته أو رأيُه فلا ينسبُ إليه، بل يُتجاهل معاه وكأنه غيرُ موجود، ولا علاقة له بذلك. وهذا هو البؤس بعينِه، والتنكرُ للجميل.

فما العملُ؟! وما هو الحلُ؟!

إن ما أبديتَه يا أخي من ملاحظات حول المشاكلِ التي تعترض طريقَ المثقفينَ وحولَ شخصياتِهم المتعددةِ وميولهم المختلفة، والأسباب التي تحرفُهم عن تأديةِ رسالتِهم أصابت كبدَ الحقيقة، وهي فعلاً عوائقٌ تقفُ في سبيلِ تحقيقِ غاياتِهم وآمالِ شعوبهم، وهي أشبهُ بالألغامِ القاتلةِ المزروعةِ في طريقهم، تمنعهُم من قيادةِ أوطانِهم نحو التقدم والحرية والعدالة.

ولكن - يا أخي! - مهما كانت الصعابُ والعقباتُ التي ذكرتَها، والتي هي صحيحةٌ تماماً، يجبُ ألاّ تقفَ عثرةً في سبيلِ ممارسة دورِهم القيادي لمجتمعاتهم بقدرِ ما يستطيعون، وضمنَ الهوامشِ المتاحةِ لهم، متحملين ما يمكن تحمّلُه من أخطار، من أجل مسقبلهم ومستقبل أولادهم وأبناء أمتهم. فالمثقفون هم خطُ الدفاعِ الأولِ، خطُ الدفاعِ الحقيقي، فإن لم يقفوا في ذلك الخطِ فمن يقفُ غيرهم؟ وإن تراخوا عن أداء رسالتِهم فمن يا ترى يأخذُ مكانَهم؟!

إننا نعلمُ تماماً أن الغربَ لم يتقدمْ إلاّ باعتماده على العلمِ والشعب الحر، وإن ما من بلدٍ تحرر ونال استقلالَه إلاّ على دمِ الشهداء، وإن باب الحرية لا يستطيع فتحه إلاّ الشهيد، والمثقفون هم شهداء العلم والحق والتقدم والحرية.

وإذا كان همُّ المثقفِ كِسرةَ الخُبز، وارضاءَ النظامِ الظالمِ، فعند ذلك يصدقُ فيه قولُ الشاعرِ الكبير نزار قباني، الذي اعتبر الشاعرَ علي رأسِ المثقفين قال:

نرفضُ الشعرَ أن يكونَ حصاناً
يمتطيه الطغاةُ والأقوياءُ
ما هو الشعرُ ؟ إن غدا بهلوانا
يتسلى برقصِه الخلفاءُ
ما هو الشعر؟ حين يصبحُ فأرا
كِسرة الخبز.. همه.. والغذاءُ
وإذا أصبحَ المفكرُ بوقا
يستوي الفكرُ عندها والحذاءُ
يصلبُ الأنبياءُ من أجل رأيٍ
فلماذا لا يُصلبُ الشعراءُ؟

فلا بدَّ للمثقفِ العربي، وضمنَ الظروفِ القاسيةِ التي يعيشُها، ومهما

صعبت، من أيـن يمـارس دوره متحمـلاً المشاق، مناضلاً عنيداً مـن أجـل شـعبه ووطنه والإنسانية متمثلاً قول المتنبي:

قِفْ دون رأيك في الحياة مجاهداً

إن الحيـاةَ عقيـدةٌ وجهـادُ

فعلى المثقفِ أن يكونَ قدوةً لشـعبه، ونموذجاً حيّاً، ومشكاةَ نورٍ تـهدي الجميـعَ ليمتثلَ به الناس ممن يعرفونَه أو يقـرؤون مؤلفاتِه وكتبَه، فينـالَ احترامَـهم وحبَـهم، ضارباً مثلاً أعلى في ممارسةِ القيم والمثـلِ والأخلاقية علماً وعملاً، انسجاماً مع ثقافتـه وعقيدته ومبادئه، فتثقَ به الجمـاهيرُ التـي يناضلُ من أجلِها، ويعملُ لخيرها وصلاحها.

وإن الممارسـة الصادقـةَ تعطـي المثقفَ قيمةً حقيقةً بين الناسِ فيلتصقوا بـه ويحترموه، ويسيروا وراءه، ويؤمنوا بأقوالـه وجهادِه ونضالـه، فيسـاهمَ فـي تثقيفـهم وتنويرهم ووضعهم علـى الخـطِ الوطنـي السليم، الذي يؤدي بالمجتمعِ نحـو التقـدم والتحضر.

ولا شيءَ أضرُ بـالمثقفِ مـن أنْ يكونَ مداهنا ومرائياً، يفعلُ خلافَ ما يقـولُ فيصدق فيه قولُ الشاعر:

لا تنهَ عن خلقٍ وتأتِي مثلَه

عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

وكم نعاني نحن الشعوب اليوم ممـن يخونون مهامهم ورسالاتِهم، فـي وظائفـهم ومهنهم، فيحتالون على أبناء بلدِهم وشـعبهم الفقير عندما يحتاجُهم أو يُسلِمُ أمرَه لـهم، أو ينصبّون أنفسَهم أربابَ نعمته؟ ان اسـتغلالَ هؤلاء المثقفين لعلمِـهم وثقافتِـهم هـادفين مصلحتِهم الذاتية فقط يكونون قد فقدوا ثقـةَ الشعبِ بهم، وقد يَنظرُ إليهم كـأعداء لـه. وباعتبارِ المثقف وجهُ الأمةِ ومـن روادهـا فإذا فَسَدَ قادَها نحو الانهيارِ والفسـاد فإنمـا الأممُ بأخلاقِ ابنائها فإن فسَدوا فسَدت الأمةُ.

وإنما الأممُ الأخـلاقُ ما بقيتْ

فإن همو ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

وعلى المثقفِ أن ينشر ثقافتَه بيـن أبنـاءِ مجتمعـه، لا أن يحتفـظ بـالعلمِ لنفسه، فالعلمُ كالمالِ فإنك لن تسـتفيد منـه ما لم تنفقه.

قال : (تبا لك أيها الفلسُ فـإنك لـن تنفعني حتى تخرج من جيبي) . وهكذا العلمُ والثقافةُ فإن أكلهما فـي نشـرهما، وتَمثّـلِ الشعب لهما. اجتمـع الفيلسـوفُ سـقراط بجماعةٍ من الناس فبدأ يتكلمُ كلُ واحد منـهم مبدياً رأيَه إلاّ واحد، فقال له أرسطو: (تكلـمْ يا رجل حتى أعرفَك!) فليس المهمُ أن يكـونَ الشخصُ مثقفاً فقط، بل الأهمُ أن ينشرَ ثقافتَـه بين أبناءِ مجتمعه، فهو واحدٌ وهم كثرٌ.

ومن واجب المثقف أن يطّلعَ علـى ظروفَ حياة شعبِه ومشاكلِه فيناقشها ويضـعَ الحلولَ لها، وكلُ مثقف حَسْبَ اختصاصِـه، مستغلاً المناسبات الاجتماعية الكثيرة، وعليه أن يقومَ بالقاء المحاضرات حيث يتـاح لـه ذلك أيضاً، فهي الندوات التي يلتقـي فيـها بالناسِ، وفي المراكزِ الثقافية، وكلما سـنحت له الفرصة ذلك، معبراً عن آرائهم عارضـاً مشاكلهم، منتقداً كل تصـرف أو سـلوك لا يحققُ أهداف مجتمعه. ولا يدع أيةَ فرصـةٍ تضيعُ دون أن يستغلها. لقد سمعت روايـةً جميلةً بهذا الشأن. هو أن أحـدَ الجنـرالات

جاء إلى موقفِ باصٍ للنقل الداخلـــي يريـدُ الذّهابَ إلى عملِه، فوجـدَ عسـكرياً برتبـةِ عريف وإلى جانبه جنديٌ، فسألهما الجـنرال منذ متى تنتظران الباص هنا؟ فقالا له: منـذ نصفِ ساعة تقريباً، فقال الجنرالُ للعريـف: ولماذا لم تدرِّبْ هذا الجنديّ؟! ابدأ بتدريبـه فبدأ العريفُ بتدريبه في الحال وأمـام كـل الناس..

وهناك مجالاتٌ أخرى كثـيرةٌ فـي زماننا لكي ينشـر المثقـفُ آراءَه ومبادئَـه وعقائدَه ووجهةَ نظره التي يراها فـي كـلِ صغيرةٍ وكبيرة، بجرأةٍ وشجاعةٍ وعلمانيـةٍ وحيادٍ، من خلالِ وسائلِ الإعـلام الكثـيرة كالتلفزّيون والمذياع، والصحف والمجـلات وغيرها وغيرها، ومن خِلال تأليفِه للكتـب ونشرِ المقالاتِ والمحاضرات، فتصـلَ آراؤه من خلالها لأكبرِ شـريحة فـي المجتمـعِ، وتؤدي بذلك الفائدة المرجوة، فيساهمَ بنشـرِ ثقافته التي تنفعُ الجميعَ. ولا بأس أن يتحمـل بعضَ المشاق والظلم وما يتبعُ ذلك في سبيلِ نشرِ المعرفةِ والعلمِ، إذ أنه وحده اختيرَ لهذه المهمَّة الصعبةِ والشاقةِ. وإذا لم يفعلْ ذلـك كما قلت فمن غيره يستطيعُ أن يحلَّ محلَـه؟! أو نبقى هكذا متخلفين!

ألمْ يقمْ الأنبياءُ والرسلُ، بما أوكـل إليهم من مَهام لتأديةِ رسالتهم؟ وكم لاقوا من الاستتكبارِ والعذابِ والاضطهادَ فـي سـبيل نشرها؟ وكم جاهدوا وناضلوا، ونادوا بأعلى أصواتِهم فـي السـاحات وعلـى مفـارقِ الطرقات وفي الاجتماعات والندوات لكـي يؤمنَ الناسَ برسالاتِهم؟! وما استجلبَ فـي البدء إلاّ القليل القليـل، فقاومـهم الأشـرار والجهلةُ والسفلةُ وقطاعُ الطرق، فتحملوا كلَّ المشاق والعذابات، فمنهم من جرح، ومنـهم من قتل، ومنهم من صُلب، فصـبروا ومـا بدلوا آراءهم تبديلا.

وهكذا انتصر الأنبياءُ بـالحق، وأدوا رسالاتِهم، وكان ذلك بجهادِهم وتضحياتِـهم، وما قاموا به من تفانٍ وفداء، فكانوا خـالدينِ أبدَ الدهر. فـإن لقـي الأنبيـاء والرسـل والمصلحون أشدَ أنواعِ العذابات في سـبيلِ نشرِ رسـالاتهم، فعُذبـوا وصُلبـوا أليـس بالأحرى أن نقتـدي بـهم، ونسـيرَ علـى خُطاهم، من أجلِ شعبِنا ووطننا وأمتنا؟!

إن المثقفَ مكلفٌ بـأداءِ رسـالتهِ، والدفاعِ عنها، مـهما أصابَـه مـن ظُلـمٍ واضطهاد، لأنَّه وحدَه الذي يحمـلُ مشـكاةَ النورِ ومشّعلَه، وحدَه الضوء المبدد للظـلام، هو الناطقُ بالحكمةِ والمعرفةِ والعلمِ، وعليـه أن يعملَ من أجلِ تحقيق رسالته، وفي سـبيل بناءِ مجتمعٍ حرٍ متقدمٍ عصري.

فإن أمةً ليس فيها مثقفون فهي أمـةٌ جاهلةٌ وأمةٌ متخلفةٌ، لا يُحسبُ لها حسـابٌ، ولا مكانةَ لها بين الأمم، يعيشُ أبناؤها بـالذّلِ والفقرِ والقهرِ والجهلِ، وهي ذاهبـةٌ نحـو الزوال.

وإن أمة يقودُهـا مثقفوهـا، هـي أمةٌ حيةٌ خالدةٌ أبدَ الدهرِ. فكـن يـا أخـي المثقف مثقفاً حقيقياً أولاً، ولا تضنُ بعلمِـك وعملِك وثقافتِك على أمتِك ووطنِك وشعبك، واسبقِ الصبحَ إلى مطلعِ الشـمسِ، حاديـاً أمتَك بالعلم والثقافةِ والعمـل نحـو المجـدِ والخلودِ، فبذلـك مجـدُ الأمَـةُ وفخارُهـا وعظمتُها.

نهضوا وقد صدح الآذان

ياسر برازي

نـــهضوا وقـــد صــــدح الآذانُ توضَّـــؤوا بــــدمِ الحجــــرْ
الفجـــرُ قـــال لوعـــده الآتـــي: سيبتســـمُ القَمَـــرْ

السَّـيلُ، لـــن تقـــفَ الســـدودُ بوجهِـــه لقـــد انـــهمر
فـــالأحمرَ الينبـــوعَ يُملـــي مـــا تخـــطُّ يـــدُ القـــدر

طفـــلٌ ومقـــلاعٌ فيـــا دربَ الشـــهادة يـــا ســـفر
آتـــون: ســـكيناً وصاعقـــةً علـــى شـــفَةِ الظَّفـــرْ

ودمـــاً لشَـــعْر القـــدسِ حِنّـــاءً وللأقصـــى زهَـــرْ
الشـــوكُ لـــن يُدمـــي عيـــونَ القـــدسِ فـــاهطلْ يـــا مطـــرْ

* * *

نـــهضوا وقـــد صـــدحَ الآذانُ إلـــى الجـــهادِ إلـــى الجـــهادِ
لـــن تســـتقرَّ مـــاؤهم بصدورهـــم فـــالرَّملُ صـــادِ

جـــاؤوا ســـيولاً حيـــن حـــلَّ الليـــلُ يُمعـــنُ فـــي السَّـــوادِ
يـــا قـــدسُ يـــا أقصـــى ويـــا آلام رابيـــةٍ ووادِ

خلّـــوا الدمـــوعَ وأبعـــدوا عـــن صدركـــم لـــونَ الرّمـــاد
قومـــوا اجعلـــوا الشـــهداءَ أقمـــاراً علـــى طـــرقِ الرشـــاد

ولتكتبوا بدم الشهيد فإنه خير المداد
الراعفاتُ من الجراح الحمر تذهبُ بالحداد

* * *

نهضوا وقد صدح الأذان لينبتوا فينا هدانا
كنا وكانَ الخوفُ يصفعُنا ويسلبنا خُطانا

لا القدسُ لا الأقصى يحرّكنا وقد هانتْ وهانا
والآن: كلُّ نوافذِ الدنيا تَصيحُ إلى نِدانا

الزغرداتُ على دروبِ الفتحِ تسكبُها دمانا
يا أيها الأطفالُ يا حُمماً تدفَّقُ من ثرانا

لا تُخمدوا لهبَ الحجارةِ أحرقوا فيها الجبانا
فرعونُ أدمنَ ذلَّهُ، موسى يلقِّنُه الهَوانا

* * *

يا من ذهبتَ إلى النضالِ وعدتَ محضوبَ الوشاحِ
يا أيها المغروسُ رمحاً يستطيلُ على الرِّماحِ

سكتوا وقد غنَّيْتَ في الساحاتِ أغنيةَ الكِفاحِ
حجرٌ بكفكَ أيها المصنوعُ من ألمِ الجراحِ

حجرٌ سلاحُك - إنَّهُ السجيلُ- بوركَ من سِلاحِ
دمكَ الخلودُ، الليلُ فيه يظلُّ يهتفُ للصَّباحِ

دمكُ الحضارةُ أنبتتْ فجراً وروضاً من أقاحِ
اكتب: تقدَّستِ الشهادةُ - ما لعُمقِ الجرحِ ماحِ

محمد عدنان مراد

بين الثقافة والدبلوماسية والرحلات

بقلم:
أحمد شوحان

تربطني به صداقة عقد كامل من الزمان، كلها في قاعة الاجتماعات الشهرية لجمعية البحوث والدراسات في مبنى اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

لا يكاد ومنذ بداية معرفتي به رأيت فيه من الصفات قلما أجدها في غيره من أعضاء تلك الجمعية الموقرة.

كان هادئاً قليل الكلام، لا يتكلم إلاّ إذا طلب منه ذلك، فإذا تكلم كان مثال الخبير المطلع، والمثقف الواعي، والمؤرخ الثقة، والجغرافي الرحالة الخبير والأديب الباحث، والدبلوماسي الذي قضى شطراً كبيراً من حياته يتجول في ثلاث قارات من العالم القديم، يخدم وطنه ليفي ما بذمته من دَين لأمته.

ولا يكاد يغيب عن اجتماعات جمعية البحوث والدراسات الشهرية إلاّ ما ندر، يناقش، ويبدي رأيه، ويحاضر، يتكلم بهدوء وتؤدة، ولا يغضب من حوار معه، ولا يتعصب لرأيه، ويحترم رأي غيره كثيراً، وكأن الدبلوماسية التي مارسها فيما بعد شبابه قد انطبعت على سلوكه وحياته. فنحن نلتقي في كل شهر من معين خبرته وتجاربه التي قلّما نجدها عند غيره من أقرانه.

ومن يجلس معه عاماً كاملاً يسمع لحديثه أو يناظره في مسألة أو يناقشه في قضية لا يلمس فيه تعالياً أو تفاخراً أو شيئاً من عنجهية عسكرية، وكأن الرجل لم يكن عميداً ركناً في الجيش العربي السوري، وكان الذين يحملون هذه الرتبة في أيامه لا يزيدون على عدد أصابع اليدين، أو سفيراً لبلاده في عدد من الدول، فزادته وظائفه تواضعاً، وزاده تواضعه محبة بين زملائه.

مولده ونشأته

في مدينة حماة وفي عام ١٩٢٤ ولد عدنان مراد بين صرير النواعير التي تئن ليلاً ونهاراً، ولعلعة الرصاص الذي كان الفرنسيون يرشقون به المدينة التي ثارت عليهم، واستمرت في الثورة إلى يوم الاستقلال.

وبها نشأ ودرس الابتدائية والإعدادية والثانوية وفي ١٩٤٥/١٢/١٢ تطوع في الجيش السوري الذي كان يرضخ للفرنسيين الذين بدأوا يربطون أحزمتهم للرحيل عن أرض الوطن. وقضى في الكلية العسكرية في حمص سنتين، سنة والبلاد ترضخ للفرنسيين، وسنة وقد أصبحت البلاد حرة مستقلة.

صفاته ومزاياه

منذ صغره كان يحب الرحلات والاكتشافات الجغرافية التي قام بها الرحالون القدماء من المسلمين الذين انطلقوا من الأندلس فجابوا أفريقيا وآسيا وجزر البحار التي مروا بها، البحر الأبيض المتوسط والأحمر والبحر العربي والمحيط الهادي والهندي.

وكثيراً ما كان يفكر وهو في نعومة أظفاره: هل أتجول في العالم كما تجوّل هؤلاء وأرى من عادات الشعوب وصفاتها. وجمال البلدان وغرائبها كما رأى القدماء فأكتب عنهم كما كتبوا لنا، وأصبحت كتاباتهم تراثاً خالداً نعتز به؟!!

في الجيش السوري

تخرج من الكلية العسكرية في ١٩٤٧/١٢/١٢ برتبة ملازم ثان، وقد اختص في سلاح فرسان - مدرعات.

وبعد ثلاث سنوات أُرسل إلى فرنسا ببعثة عسكرية (١٩٥٠- ١٩٥١م) والتحق بمدرسة تطبيقات المدرعات والخيالة العسكرية في (سومور) اختص فيها على سلاح المدرعات والتعاون بين صنوف الأسلحة العسكرية.

وفي عام ١٩٥٩ اتبع دورة أركان حرب في كلية الأركان السورية وحاز على شهادة ماجستير في العلوم العسكرية.

وإبان عمله كعسكري في الجيش السوري عمل في جيش الإنقاذ علم ١٩٤٨ حين تقدم المجاهدون لتحرير فلسطين من الغزاة الصهاينة اليهود، فكان قائداً لحامية عكا، وقد شارك مع جنوده وضباطه في الدفاع عن المدينة، كما شارك في الدفاع عن مدينة صفد، ثم استلم قيادة مدرعات فوج اليرموك الثاني، وشارك في الهجوم على بعض المستعمرات، كما شارك في العديد من المعارك التي دارت بين مجاهدي جيش الإنقاذ وعصابات اليهود الغازية منها: معركة المالكية، وقدس، والنبي يوشع، وغيرها.

كما كان له شرف المشاركة في المعارك بين الجيش السوري والجيش الإسرائيلي وذلك في معركة تل العزيزيات، ومعركة جسر بنات يعقوب.. وغيرهما.

كل يعمل بشجاعة وشرف بالغين مما دعا القيادة العسكرية تنظر إليه نظرة الاحترام والتقدير فمنحته مجموعة من الأوسمة.

١-وسام الإخلاص من الدرجة الأولى.
٢-وسام الاستحقاق السوري.
٣- وسام الشرف العسكري.
٤- وسام فلسطين.
٥- منح جميع الأوسمة التذكارية في المناسبات والأحداث الهامة.

وقد تنقل في مناصب عسكرية مختلفة وارتقى فيها بأمانة وقدرة وكفاءة بدأها بقائد سرية ثم قائد كتيبة، فمديراً لمدارس المدرعات، فقائداً للدفاع عن مدينة دمشق، فقائداً لسلام المدرعات، ثم أصبح قائداً للمنطقة الساحلية. وكان برتبة عميد ركن. لقد كان عسكرياً ملتزماً بشرفه العسكري وانضباطه المسلكي، ولم أر فيه يوماً عنجهية وجلافة الآخرين، الذين يتصرفون بخشونة وصلف، أو يكتمون ما لا يعلنون، ولذلك كان محبوباً من رؤسائه ومرؤسيه على السواء وكان نشاطه الثقافي وهو في السلك العسكري ملموساً:

١-شارك في ترجمة القاموس العسكري، وكان مندوباً بذلك عن سلاح المدرعات.
٢-كتب العديد من المقالات العسكرية في المجلة العسكرية السورية .
٣-قام بترجمة الأنظمة العسكرية الفرنسية إلى اللغة العربية.
٤-ألقى العديد من المحاضرات والكلمات في القطعات العسكرية في أزمنة مختلفة، وشارك في الندوات الكثيرة.

في العمل الدبلوماسي

كانت الوحدة بين القطرين الشقيقين سورية ومصر عام ١٩٥٨ أملاً للعرب قاطبة في إقامة الوحدة العربية الشاملة، لكن هذه الوحدة لم تدم طويلاً وحدثت فيها أخطاء، تمنينا أنها لم تحدث، حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه من حركة عسكرية قد تطيح بهذه الوحدة، وهذا ما حدث فعلاً في ٢٨ أيلول ١٩٦١ حيث انفصلت هذه الوحدة، وتقطعت عراها. من تلك الأخطاء التي استغلها العسكريون السوريون: نقل عدد من الضباط السوريين إلى وظائف مدنية ووزارات لا علاقة لها بالشؤون العسكرية، أو ألحقوا بوزارة الخارجية.

وكان صديقنا الأستاذ عدنان مراد أحد أولئك الضباط - هو عميد ركن - الذين ابعدوا عن الجيش إلى وظائف مدنية وقد انتهى عمله في الجيش السوري في ١٩٦١/٢/١ ليلتحق بعد هذا التاريخ بوزارة الخارجية في القاهرة.

ومن القاهرة كانت نقطة انطلاقه في العمل السياسي والدبلوماسي، وارتقى إلى مناصب مدنية رفيعة هي:

١-عمل مديراً لإدارة الوطن العربي مع صفة مندوب سورية في جامعة الدول العربية، ورئيس الوفد السوري لمؤتمر الجامعة العربية - أجهزة فلسطين - في المؤتمرات الدولية المشرفة على اللاجئين الفلسطينيين بين عامي ١٩٦٢- ١٩٦٦ .

٢- صب جهوده وخبرته لتوثيق الصلات العربية الأفريقية، للوقوف في وجه الهجمات المتكررة على القارة السوداء من الغرب عن طريق شراء العملاء وكبح جماح الإرساليات التبشيرية التي عملت جادة من أجل تغيير الهوية الأفريقية، ومن إسرائيل عن طريق الصهيونية العالمية حيث راحت تتغلغل في هذه القارة البكر العزلاء، وتمد إليها نفوذها لصهينتها وامتصاص ثرواتها، فكان نتيجة جهوده وجهود زملائه في الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية أن تأسس البنك العربي للتعاون العربي الأفريقي.

٣- عين سفيراً لسوريا في الصومال عام ١٩٦٢ وأقام فيها أربع سنوات كان خلالها يعمل بجد ونشاط مع الحكومة العربية الصومالية لتخفيف الضغط على ثوار أرتيريا التي كانت خاضعة للحبشة في اتحاد فيدرالي أقامته الأمم المتحدة في كانون الأول عام ١٩٥٠، وكانت سورية أول دولة تقدم العون

والمساعدة المادية والمعنوية لثوار أرتيريا عام ١٩٦٢ وهي المهمة التي كان يقوم بها زميلنا عدنان مراد.

٤- خلال إقامته فيها تعرف من خلالها على طبيعة الشعب الصومالي والزعماء الذين كانوا يطالبون بالأراضي الصومالية الخاضعة لأثيوبيا. وكتب عنها كثيراً. وتعرف على الجالية العربية والإسلامية في ثلاث دول مجاورة للصومال هي كينيا وأوغندة وتنزانيا من خلال زياراته لها.

٥- عندما عاد إلى سورية بعد انتهاء عمله كسفير للصومال، عاد إلى لوساكا عاصمة زامبيا لحضور مؤتمر عدم الانحياز عام ١٩٧١ التقى خلال فترة المؤتمر مع أعضاء الوفد السوري عدداً من الزعماء الأفارقة وغيرهم.

٦- كتب عن الدول التي عمل بها أو زارها. وقد قرأت العديد من تلك الدراسات في نسخها الأصلية التي لا يزال يحتفظ بها. وهو في تلك الجولات الواسعة في أفريقيا كان يجد العرب فيها بل يجد المسلمين فيقول: (في كل مكان وصلته في القارة كنت أجد في من يحدثني باللغة العربية أو يحييني بسلام الإسلام) .

٧- عمل مديراً لإدارة القنصلية، ورئيساً للوفد السوري لتوقيع الاتفاقيات القنصلية مع الدول الاشتراكية – بولونيا – رومانيا – بلغاريا.

٨- عمل مديراً للإدارة الأفريقية، ورئيساً للوفد السوري في مؤتمرات التعاون العربي الأفريقي في تونس – ليبيا – دمشق.

٩- مثل سورية في عدد من المؤتمرات والوفود الرسمية منها:

أ- كان عضواً في الوفد السوري لمؤتمر دلهي لمساندة شعب ناميبيا عام ١٩٨٥.

ب- اعتبرته الجامعة العربية خبيراً في الشؤون الأفريقية، وقد شارك في عدد من المؤتمرات التي عقدت لمناقشة أوضاع أفريقيا سياسياً واقتصادياً.

ت- عمل كقائم للأعمال في السفارة السورية في بون.

ث- عمل سفيراً لسورية في اليمن الشمالي والجنوبي.

ج- عمل سفيراً لسورية في اليونان.

ح- مثل وزارة الخارجية في مباحثات سد الفرات خلال التحضير لبنائه.

خ- مثل وزارة الخارجية في المؤتمر الألفي لمدينة بغداد، وذكرى الفيلسوف الكندي فيها.

إلى غير ذلك من المهام الثقافية والدبلوماسية التي مارسها وقام بها خدمة لوطنه بكل صدق وإخلاص وأمانة.

ثقافته

نشاطاته الثقافية في الفترة التي عمل فيها في وزارة الخارجية دسمة لأنه زار وتجول وأقام في العديد من الدول في آسيا وأفريقيا وأوروبا، فقد كتب دراسات موسعة عن اليونان، الصومال، كينيا، تنزانيا، الكونغو، غينية، أثيوبية، زنجبار، وغيرها.

وكتب أبحاثا سياسية مطولة أذكر منها:

١-القومية الزنجية في فكر الرئيس السنغالي سنغور.
٢- دراسات عن الأحزاب الإسرائيلية.
٣- الموقف الدولي من القضايا العربية، وموقف الدول من القضية الفلسطينية.
٤- احتلال إيران للجزر العربية.
٥- الخليج العربي في الماضي والحاضر.
٦- دراسة عن عربستان.
٧- دراسة عن جزر الخليج العربي.
٨- عمان وإمارات الخليج.
٩- تاريخ عمان والثورة العمانية.
١٠-الجنوب المحتل (اليمن الجنوبي) .
١١-دراسة عن جزر البحر الأحمر.
١٢-دراسة عن السودان.
١٣-دراسة عن موريتانيا .
١٤-دراس عن الأكراد وثورة البرزاني.

وله العديد من الكتب المطبوعة والمخطوطة، تأليفا وترجمة أذكر منها المطبوعة:

١-صراع القوى في المحيط الهندي والخليج /١٩٨٢/ مكتبة التنبكجي - دمشق.
٢- بريطانيا والعرب. صدر بدمشق عن دار طلاس عام ١٩٨٥م.
٣- تراجم عن اللغة الفرنسية - معركة ستالينغراد صدر عام ١٩٨٦.
٤- المجتمعات الأفريقية /١٩٩٥/ صدر عن إتحاد الكتاب العب بدمشق.
٥- ملوك وعشيقات (قصص الحب التي صنعت فرنسا) صدر الجزء الأول منه عام /١٩٩٣/ عن دار الأهالي بدمشق، والجزء الثاني لا يزال مخطوطا.

أم كتبه المخطوطة التي ترجمها عن الفرنسية ولا تزال مخطوطة فهي:

١-مذكرات الجنرال فاسيليفسكي رئيس الأركان في الاتحاد السوفييتي سابقا إبان الحرب العالمية الثانية.

٢- نحن الأخوة بارباروس ملوك الجزائر وأعظم الربابنة.
٣- فرديناند وإيزابيل ملوك الكاثوليك (خروج العرب في إسبانيا)
٤- الحرب الجرمانية السوفييتية (الجنرال الفرنسي كوننغ).
٥- البرتغال والعرب. وهو مخطوط من تأليفه.

أما عن الصحف والمجلات التي نشر فيها مقالاته وبث فيها أفكاره وآراءه فهي كثيرة جداً، ومع كثرتها لم يكن همه الوحيد أن يكتب وينشر، ولكننا من خلال معرفتنا به كتب ليفيد غيره وينفع الناس بما كتب، وأهم المجلات والصحف التي نشر بها هي:

١-المجلة العسكرية السورية: غزو الألمان لبريطانيا، معركة طبرق، معركة كورسك، ومقالات أخرى.
٢- مجلة استراتيجيا: العلاقات العربية الأمريكية في القرن التاسع عشر.
٣- مجلة الفكر العسكري: نظرية ماهان والسيطرة البحرية، الجيوش المرتزقة ودورها، معركة تالاس آخر المعارك العربية، العلاقات التركية - اليونانية منذ ظهور الدولة العثمانية - مختصر لكتاب تيتو يتكلم تاريخ النضال اليوغسلافي ضد الألمان في الحرب العالمية الثانية
٤- مجلة الفكر السياسي: الحرب في افغانستان والعوامل المؤثرة، الخلاف الهندي الباكستاني وقضية كشمير.
٥- مجلة الآداب الأجنبية: القارة الأفريقية.

أما الصحف التي نشر بها فهي .

١-جريدة الراية القطرية: مذكرات عن ٥ حزيران عام ١٩٦٧، عدة مقالات عن سقوط الإمبراطوريات الأفريقية والحرب الأهلية في الكونغو وحرب موبوتو.
٢- جريدة الثورة السورية: دراسات عن العلاقات العربية - الأفريقية.

هذا وقد أجريت معه مقابلات كثيرة في التلفزيونات العربية تحدث فيها عن الوضع العربي والأفريقي. ولا يفوتني أن أنوه عن فكره القومي فهو في جميع ابحاثه ومقالاته وأحاديثه يتحدث عن الواقع العربي، والأمة العربية، وهو بعيد جداً عن القطرية.

ذلكم هو الصديق عدنان مراد الذي قضى حياته باحثاً وأديباً، ودبلوماسياً رحالة.

فزيدي النَّصْرَ نصْراً يا دِمشْقُ

د. محمد الحسواني

نســــيمُ الصبـــــح مـــــن بــــــردى يَـــرِقُّ
وهـــلْ فـــي الكـــونِ مثْلُــكِ يـــا دمشـــقُ

نشـــأتِ علـــى أديـــمٍ فـــي جِنـــانٍ
لـــها فـــي الخُلْـــدِ آفـــاقٌ وعُمْـــقُ

ووجـــهُكِ فـــي ســـماء الكـــوْن فجـــرٌ
وعِطـــرُكِ فـــي عيـــون الأُفْـــق ورقُ

إذا طمـــحَ المكـــانُ فـــأنتِ أهـــلٌ
وإن هـــام الزّمـــانُ فـــأنتِ عشْـــقُ

وإن شـــردَتْ نجـــومٌ فـــي الليـــالي
فبـــابُ الشّـــام مقصـــودٌ يُـــدَقُّ

غمـــرْتِ الكـــونَ إشـــراقاً وفضـــلاً
أضـــيءَ بنـــورِهِ غـــربٌ وشـــرْقٌ

إذا حكَـــمَ القضـــاءُ فـــأنتِ عـــدْلٌ
وإن جـــار الطُّغـــاةُ فـــأنتِ حـــقٌّ

وإن صـــدقَ الـــرّواةُ فـــأنتِ فخـــرٌ
وإن كـــذب الوشـــاةُ فـــأنتِ صـــدْقُ

وأنـــت علـــى رقـــاب الشّـــرِّ ســـيفٌ
وللمظلـــوم إحســـانٌ وعِتْـــقُ

* * *

صــلاحُ الدّيــنِ لــمْ يقبــلْ ســواكِ
لِضَــمِّ رُفاتــهِ أنــتِ الأحــقُّ
لأنّــهُ فــي ثــراكِ ســرى ومنــكِ
إلــى القُــدْسِ الشّــريفِ حــداه شــوقُ
وفــي حطّيــنَ كــان لــهُ انتصــارٌ
بســيفِ الشّــام أعناقــاً يَــدِقُّ

* * *

شــمختِ بميســلونَ ولــمْ تــهابي
دروعَ المعتديــنَ وهُــنَّ طــوْقُ
تقــدّمَ يوســفٌ للخلــد يســعى
ولــم يخشــىَ الــرّدى بطــلٌ مُحِــقّ
ولــم تــهنأ فرنســا فيــكِ يومــاً
وحــاط بجندهــا رعــدٌ وبــرْقُ
وحــلَّ الرعــبُ فيــهم حيــثُ حلّــوا
ونــالَ وجوهَــهُمْ طعــنٌ ومَــزْقُ
اتتنــاكي تعلّمنــا الــتَّرقي
ونــهْجُ رُقيّــها قتــلٌ وحنــقُ
علــى قمــم الجبــال وفــي البــوادي
دَمُ الشــهداء ريحــانٌ وغَــدْقُ
وفــي نيســانَ جــاء النصــر يزهــو
ونبــضُ القلــب فــي الرّايــات خَفْــقُ

* * *

دمشــقُ وقفــتِ طــولَ العُمْــر ســدّاً
ولــنْ ينتابَــهُ ضعــفٌ وخَــرْقُ

وفيــــــك اليـــــومَ بشّـــــارٌ حكيـــــمٌ

لَـــــهُ فـــــي ســـــاحةِ الرّؤســـــاءِ سَـــــبْقُ

إذا فُتحـــــتْ جـــــراحٌ فـــــي قلـــــوبٍ

لـــــهُ فـــــي ضَمّـــــها عـــــونٌ ورتْـــــقُ

وإن عـــــاث الأعـــــادي فـــــي حِمانـــــا

فعـــــزْمُ صمـــــودهِ نـــــارٌ وسَـــــحْقُ

مـــــددْتِ الصّـــــامدين غـــــداةَ هبّـــــوا

لتحريـــــر الجنـــــوبِ، بمـــــا اســـــتحقّوا

وأنـــــتِ اليـــــومَ للأقصـــــى ســـــياجٌ

وللجـــــرْح الثَّخيـــــنِ يـــــدٌ ورفـــــقُ

لقـــــد خُـــــدِعَ الطغـــــاةُ فبـــــاتَ يبـــــدو

علـــــى شـــــارونَ إرهـــــاصٌ وحُمْـــــقُ

فقـــــد جـــــاؤوا ليبنـــــوا فـــــي قُرانـــــا

صياصيـــــهم ليرتـــــاحوا ويبقـــــوا

نُذكِّـــــرُ كـــــلَّ ســـــفّاح غَريـــــب

بـــــأنَّ القـــــدسَ مقـــــبرةٌ وحَـــــرِقُ

دمشـــــقُ علـــــى ربـــــاك يجـــــدُّ نـــــورٌ

ومِـــــنْ إخلاصـــــكِ المعـــــهود دفـــــقُ

ويلقـــــى الثـــــائرون لديـــــكِ أمْنـــــاً

فزيـــــدي النَّصْـــــرَ نصـــــراً يـــــا دمشـــــق

حاسّة السّعادة عند.. عادل العوّا

بقلم:
د. محمد جمال طحان

لو أننا استطعنا تجسيد الإنسان الكامل، وتوافرت الظروف المواتية لعيشنا، لما احتجنا إلى الكتابة عن السعادة ولكنّ النقص يطوّقنا، ولا ندري لماذا يتحرّج بعض الباحثين من البحث في السعادة، مع أنها مطلب حيوي لاستمرار فاعليتنا وتفاعلنا مع العالم.

ومن بين القلائل الذين حاولوا استكشاف طريق السعادة كان الدكتور عادل العوّا، الذي تتسم أبحاثه بالعمق والإتزان. وهو يدرك أن نظرة الناس إلى السعادة تتفاوت.

لقد رأى بعض الفلاسفة أن السعادة تكمن في الفضيلة، أو في الخير، أو في التأمل العقلي، أو في الاتحاد بالله، وحسب

ولكن عادل العوّا لاحظ أن بنية الإنسان تخالف ما يذهبون إليه. إنه يشترك مع النبات والحيوان في كثير من الأمور البيولوجية، وينفرد بالعقل والتأمل. فما الذنب في أن يوافق الإنسان بنيته النباتية، ويروي غرائزه الحيوانية، وينتشي بعقله؟ وخاصة أن القرآن الكريم يخاطب المسلم بقوله: ((.. ولا تنسى نصيبك من الدنيا)). فالإسلام لم ينتظر حتى ((يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم)) . ولا يطلب من المؤمنين أن ينتظروا الجنة التي ((فيها أنهار من ماء غير آسن. وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه وأنهار من خمرة لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفّى ولهم فيها من كلّ الثمرات)).

فهو عندما يأمر المسلم بأن يعدّ العدّة للآخرة ((وابتغِ فيما أتاك الله الدار الآخرة)) ، يشدد أيضاً على ضرورة أن يطالب الإنسان سعادة حياته الفانية ((ولا تنسى نصيبك من الدنيا)) وما ذاك إلاّ لأن الإنسان محكوم بإنسانيته: عقلاً ونفساً وجسداً، ولا بد له من ارضائها جميعاً، وكلّما حسن تنظيمه لدوافعه، واعتُني بغذائه، ووُفّرت له أسباب الراحة، عاش بشكل أفضل، وحسن عمله لآخرته.

ولا ضير في أن يختلف الناس في مسألة تجربة السعادة، وذلك لأنها أمر يتصل في نظر أصحابها بتجاربهم في الحياة، فهي ثمار الألباب وحصيلة الممارسة ونتاج الخبرة والحنكة.. ولكن هل يمكن أن تأتي السعادة عفواً؟ أحياناً يمكن أن يحدث ذلك، ولكن حدوثها بهذا الشكل أمر طارئ، وما هذا إلاّ لأن الدكتور العوا يعدّ السعادة كالثقافة جهد تنظيم لا يضطلع به حقاً إلاّ صاحبه. وعن علاقة السعادة بالعلم يرى أن السعادة في الحياة مرتبطة بالحكمة أكثر مما هي مرتبطة بالعلم. فالعلم قد يخطيء في تقديره أحياناً وما المشكلات التي يخلقها العلم كل يوم إلاّ خير دليل على ذلك . أما الحكيم فإنه يصيب دائماً ويسعد دائماً.

والسعادة عند العوّا شعور مباشر يتوقف على الخبرة والسلوك، وهي مطلب راهن يمس التحلي بالفضائل، فكلما اقتربنا من القيم الأخلاقية النبيلة نصبح أقدر على التحلي بالسعادة.

كما يرى أن السعادة حوافز، واللذة هي جماع الحوافز التي تسوق الإنسان إلى طلب السعادة. وتنشأ اللذة من ارضاء الميول. أما وعي الإنسان بكرامته فينقله من الإحساس باللذة إلى الشعور بها، بإتجاه مطلب الكمال أو المثل الأعلى.

ويفرّق العوا بين اللذة والسعادة، فالسعادة ملتقى اللذة بالكمال، أو المتعة بالقيمة، أو الواقع بالمثل الأعلى، هي تطابق بين النظر والعمل. وبما أن للسعادة دوراً في السلوك، فلا بد من تلازم السعادة والتخلّق. ولكن لا ترتبط السعادة دائماً بالفعل الأخلاقي. والتخلّق لا يكفل للمرء شعور السعادة حتماً، واللاتخلق لا يقود بالضرورة إلى مشاعر التعاسة.

إن شعورنا بالسعادة لا يتبع نتائج أعمالنا دائماً، وإنّما يخضع أحياناً لظروف خارجة عمّا قد نرسمه. لقد أراد (بوذا) التقشّف، وترك الشهوات للوصول إلى السعادة، بينما ينصح (زرادشت) بإجراءات عمليّة، من أهمّها تحقيق الإنسان العدلَ مع الأعداء والأصدقاء.

ويعلن (السيد المسيح) أن دار السعادة لا يتوصّل إليها إلاّ في الآخرة، فما هذا العالم (سوى جسر) للآخرة، فهل يستحق العالم مشقّة الاهتمام به؟

في حين أن (أبيقور) قد حدّد السعادة باللذة، فالسعادة جسميّة، أمّا غاية

الحكمة فهي المتعة، ولا يمكن أن يكون الإنسان سعيداً ما لم يكن حكيماً وشريفاً وعادلاً.

واللذة القصوى تمثّل التقيّد بالفضيلة. وكما تقول الجوقة في رواية (انتيغون) التي كتبها (سوفوكليس) :

((إن الحكمة هي أولى ينابيع السعادة)) .

أمّا (ابن باجة) فإنه يضع منهاج تدبير المتوحّد طلباً للسعادة وتدعو (مهما بهارات) إلى الامتناع عن إيذاء أحد، كما تدعو إلى القناعة والهدوء وضبط النفس والتسامح،

ولكنّ مذاهب السعادة تلك تبقى وجهات نظر مختلفة، ويبقى الشيء الأكيد المشترك بينها أن السعادة كثيراً ما تخرج عن نطاق الأخلاق. ويرى د. العوّا أن للسعادة شروطاً، فهي غير ممكنة مع العوز والمرض، بل لا بد أن يتمتع الإنسان - مبدئياً - بشروط كفايته المادية والمعنوية والنفسية ليتمكّن من الوصول إلى ذلك الشعور المرهف الذي ينتقل عبر الإحساس تارة، وعبر الفكر تارة أخرى.

وبما أنه يرى أن السعادة هي تنظيم اللذات، كان لا بد أن تكون نسبية تتأثر بالظروف والطرائق التي ينهجها كل إنسان لتنظيم لذّاته. ومن هنا يعود مرة أخرى إلى التفريق بين اللذة والسعادة: ((إن للسعادة صفتي الدوام والتعميم، في حين أن اللذة تتصف بأنها زائلة ومحدودة)).

وهو يرى أن خير وسيلة لبلوغ السعادة هي ألاّ نتخذ السعادة غرضاً مباشراً. صحيح أن السعادة جهد ودأب وسير على الطريق، وهي لا تنال إلاّ بالوعي والتنظيم، وعي الواقع باحتمالات لذّاته، وتنظيم هذه الاحتمالات باتّجاه القيمة الأسمى، ولكن ينبغي لنا ألاّ نبالغ في طلبها حتى لا تفرّ منّا .

وكما تشترط السعادة وجود حدود دنيا من الشروط الشخصية، كذلك فإن السعادة تستلزم الحرية، ولا سيما حرية الأفراد في الاضطلاع بمصيرهم.

وحين يقارن السعادة بالمدنية والحضارة يرى أن السعادة لا تلتقي بالحضارة إلاّ إذا استطاعت حرية الأفراد والأمم أن تتيح للناس تنظيماً قانونياً وإمكانات راهنة فعليّة، تمكّن الشخص الإنساني من اختيار مصيره، وابتكار سعادته بتنظيم لذّاته تنظيماً منهجياً يعكس ثقافة عصره ومصره.

ولكن هل يقتصر الفرد على الاهتمام بسعادته؟ يجيب الدكتور العوّا: لا بد أن يبتعد الإنسان عن الأنانية، لأن التضحية تتكشف عن متع لا حصر لها، ويمكن أن نلاحظ ذلك في عاطفة الأمومة. ومثل هذا القول صحيح في ميدان الحب بوجه عام.

وإذا كان الحب يرتبط بلذّات (أنانية) حسّية، فإنّه يتّصف أيضاً بـ غيرية) رفيعة جعلت أكثر من مفكّر ينادي

بأن الحب أصل سائر أشكال (الغيرية) الأخرى.

إن اللذة الغيرية، كما يرى د. العوّا، لا تخضع لحساب نفعي (أناني) مسبق. فإذ أشعر باللذة من جرّاء إسعاد من أحب فلست أفعل ذلك طلباً للّذة بالذات، بل إن اللذة تواكب فعلي ذلك.

وما هذا إلاّ لأن للقلب (الغيري) وثبة عفوية تسبق (الأنانية) وتسمو عليها وقد جعل بعض المفكرين (الغيرية) نبراس التعاون والتكافل، ووجدوا أنها معيار الحضارة والرقي. وحسِبَ بعضهم أن في وسعهم قياس درجة التقدّم بمقياس ازدياد الإيثار في حياة الأفرد والجماعات. لأن هذا يؤدي إلى أن يعم الاحترام بين النلس، وأن تشيع الشفقة، وتنتشر قيم التضحية من اجل الآخرين، والأمر ، على أية حال، إنما يتعلق بتنظيم حياتنا العقلي لنصل إلى النتائج المبتغاة. ولا شك أن الأنانية والغيرية إنما تعبّر كلّ منهما عن مواقف نفسية معقّدة، متفاوتة الدرجات، وهي تنم عن القيم والمعايير الأخلاقية والاجتماعية. كما أن للتربية والثقافة دوراً لا يُستهان به، ممّا يمكن أن يبعد الإنسان عن الأثرة والأنانية طلباً لتعايش مريح مع الآخرين.

السعادة الشخصية التي لا تنفصم عراها عن سعادة الآخرين، أو إسعادهم، إنما هي شيء يجب أن نصنعه.

وزبدة القول في مسألة السعادة عند الدكتور عادل العوّا تتلخّص في أن لذّات الوجود، لذّات الكائن كما هو، تدل أكثر ما تدل، على اللذات الحسية الناجمة عن ممارسة أعضائنا (الفيزيولوجية) ممارسة سويّة، وعلى المرء، بالطبع، الاّ يزدريها ولا يحاربها لمجرد ازدرائها وحربها. فإذا كان من السار أن نتدفأ مثلاً عندما نشعر بالبرد، أو نشرب حين نشعر بالظمأ أو أن نأكل طعاماً أجيد طهيه، فليس في قيم السعادة ما يمنع الاستجابة لهذه المسرّات. غير أن ثمّة لذّات إنسانية مثالية لا بد لنا من طلبها، وهي ترتبط بميول الإيثار. ومن تلك الميول الميل العقلي الذي يدفعنا إلى التفكير. وهذا هو مصدر الشعور بالكرامة الإنسانية.

ويلاحظ الدكتور العوّا أن هذا الميل الكريم قليل الانتشار بين الناس، إذا ما قيس بالميول الأنانية الحسية. ولكن من الثابت أن هذا الميل إلى الإيثار و الفكر ينبذ الميول الأخرى (الحسية) في إتصافه بالديمومة والتنوّع. وهو مصدر عظيم لشعور الإنسان باللذات المعنوية بسهولة.

وهذه اللذات كلها ترتبط بفكرتنا عن سمو الطبيعة الإنسانية. ومن المستحيل أن يتغافل الناس عن متع الكرامة الإنسانية والإيثار عندما يريدون تقدير أفضل ما يقود الناس إلى السعادة.

وبعد.. فهل يمكن أن يتمخض الزمن عن اكتشاف جديد يتمتع به بعض الناس أكثر من سواهم ليكوّن ما يشبه حاسة السعادة؟ ..

خمسون عاماً ما انطفأتُ

وليد حجار

لو تشعرون بما أكنّ وأضمر
ومحبّتي بالقلب كيف تصوّر

لو تدركون، إذا القصيدةُ أقبلتْ
ماذا أُحَمّلها.. وكم هِيَ أقدرُ

لو تعلمونَ إذا خلوتُ لعالمي
ما أستبيحُ به وما أستنكر

الحبّ مهما صوّرته مشاعرٌ
بالروح فيه طلاسم لا تظهرُ

لا تسألوني كيف عشتُ بنارهِ
لا تسألوا.. إنّ الحقيقة أكبرُ

خمسون عاماً ما انْطفأتُ بها ولا
أوهى الفؤادَ تبدّلٌ وتغيّرُ

مرّت وتاريخي يسجل ما بها
خبر يشيع وآخر يتستّر

صفحاته الخضراء جدّ قليلةٍ
بسطورها ما ازْدادَ إلاّ الأحمرُ

الأربعونَ. وقفتُ عند بلوغها
يوماً كهذا والشباب يزمجرُ

عشر مضت ما بعد ذلك وانقضت
وكأنها في سير عمري أشهرُ

مازلت أختصر السنين ورغبتي
فيها من الشهوات ما لا يحصر

فــي كــلّ آونــة يطيـــبُ لـــي الـــهوى
أحيــا كمــا يـــهوى المـــزاج ويـــأمُرُ
هـــي ذي الطبيعـــة مـــا تغـــيّر ســـيرُها
وكـــذا تظـــل مـــع الدهـــور تكـــرّر
شـــيء تبـــدّل فـــي مســـيرةِ رحلتـــي
لا تحســـبوهُ مـــع الزمـــان يؤثـــر
أصبحـــت أكـــثر خـــبرةً ودرايـــةً
فيمـــا أقـــولُ عـــن النســـاء وأخـــبر
كـــم كنـــت أجـــهل بالـــهوى، فـــإذا أنـــا
بـــالحبّ صـــاحبُ منـــهج ومقـــرّر
طوريْـــن عشـــت مـــع النســـاء مخضرمـــاً
طـــورَ الشـــباب ومـــا بـــه قـــد طـــوّروا
حتـــى انتقلـــتُ إلـــى المشـــيب ولـــم أزلْ
ابغـــي المزيـــدَ ، بمـــا أحـــسّ وأشـــعر
حبّـــي لـــهنّ يزيـــد كـــلّ عشـــية
لا يســـتكين ولا العزيمـــة تفـــتر
فـــي الأربعيـــن قـــد اكتملـــن إثـــارة
طـــاب القطـــاف وذابَ فيـــها السّـــكر
هـــي ومضـــة الإبـــداع كيـــفَ أردّهـــا
مـــن أيـــن يـــأتي الوحـــي حيـــن أعـــبّر
كـــالخمر عتّقـــها الزمـــان بحانـــة
فـــي كـــلّ خابيـــة يجسّـــد عبقـــرُ
مـــاذا ارتشـــفت ودبّ فـــيّ دبيبـــها
بعوالمـــي النشـــوى أطـــوف وأبحـــر
فأنـــا اكتســـبت مـــن التجـــارب عصمـــة
كـــالوحي ترشـــدني، فـــلا أتـــهوّر

أظـــــهرت فـــــي دنيـــا الجمـــــال مفاتنـــــا

البــــوح ممنــــوع بــــــها ومحـــــذّر

مــــا جــــفّ نبـــع كـــــان يطفـــئ غلّتـــــي

إلاّ وأرفـــــــدتِ المشـــــــاعرَ أنـــــهرُ

فأنـــــا المعلّـــم مــــا اســــتعنت بحجّــــةٍ

إلاّ اتيــــتُ بمـــــا يفـــوهُ مفكّـــــر

والشـــــيب جـــــاء يلفّنـــــي بوقـــــاره

فوجدتـــــه بـــــالروح ليـــــس يوقّـــــر

مـــــازلت أبحـــــث والطريـــــق طويلـــــة

عمّـــا يجـــدّ مـــن الفنـــون وينشـــر

حتـــــى وصلـــــت إلـــــى القناعـــة واثقـــاً

أنّـــي وجـــدت ونلـــت مـــا أتصـــوّر

أبقـــى علـــى قمـــم الخيـــال محلّقـــا

فكـــأنّني (هـــاروت) بـــابل أســـحر

هـــنّ النســـاء كمـــا وصفـــت بحقبـــةٍ

تلـــك الحقيقـــة.. كيـــف فيـــها أكفـــر

لا نفـــعَ يرجـــى إن عشـــقتُ صغـــيرة

فأنـــا الوحيـــدُ مـــن الصَغـــيرة أنفـــر

مـــا عـــدت أرغـــب أن أطـــاردَ ظبيـــة

بدويـــة الأطـــوار لا تتحضّـــر

للوقـــت مضيعـــة إذا جاملتـــها

وإنِ اجـــترأتَ فـــإنّ ذلـــكَ أخطـــر

مثـــل (الملـــوّحِ) لا أحقّـــقُ غايـــة

أملـــي يضيـــعُ وخطوتـــي تتقـــهقر

مـــهما بـــدتْ عصريّـــة بدهائـــها

عنـــد التجـــارب فنّـــها يتبخّـــر

رأسُ الحماقـــة، حيـــن أعشـــق غـــادةً
ترضـــى وتغضـــبُ والوصـــال يكـــدّر
تبقـــى مراهقـــة تقلّـــد غيرهـــا
أمـــا الخبـــيرة.. كـــم تشـــيرُ وتأســـر
تعطيـــك مـــا تصبـــو إليـــه بلهفـــةٍ
تبغـــي المزيـــد إذا اعـــتراكَ تـــأخّر
مـــاذا أقـــول وفـــي الفـــؤاد حقيبـــة
فيـــها حقـــائق مـــا أبـــوحُ وأســـتر
خمســـون مـــرّت والخطيئـــة لـــم تـــزل
تبنـــي قصـــوراً والصغـــائر تكـــبر
والنـــاس مـــا برحـــت تلـــوكُ بســـيرتي
وتزيـــدُ فيـــها مـــا يشـــينُ وينكـــر
هـــم يمكـــرون إذا ســـمعت حديثـــهم
وأنـــا أكـــذّب مـــا يقـــالُ وأمكـــر
مـــهما أعـــددْ فالشـــواهدُ جمّـــة
أن قلّلـــوا فـــي نشـــرها أو أكـــثروا
لـــن أســـتفيد وقـــد خلعـــت عبـــاءتي
ورميتـــها خلـــف الســـنين تشـــطّر
خـــالفت قـــانون الحيـــاة بثـــورة
فيـــها صـــهرت مبادئـــاً لا تصـــهر
الحـــبّ عنـــدي ليـــس دفـــق عواطـــفٍ
همجيّـــةِ الأمـــواج دومـــاً تـــهدر
هـــو كالشـــتاء وكـــالربيع تقلّبـــا
فـــي كـــلّ مرحلـــة لـــه مـــا يعـــذر
هـــو كاحتجـــابِ الشـــمس عنـــد غروبـــها
تـــأتيك فيمـــا بعـــد لا تتـــأخّر

والنفس بين غروبها وشروقها
هيهات يعرف ما تحسّ وتشعر
فالحبّ عند الناس غيّر شكله
لعداوة بين النفوس تسيطر
ما للخيانة بالنفوس تربّعت
تغزو ضمائرنا ولا نتذمّر
إن ظلّ هذا الحبّ دون عقيدة
ومبادئٍ ندعو لها ونبشّر
لا بدّ أنْ تأتي النهايةَ نكسة
في دركِ واقعها المرير نبعثر
تعطي الحياة كما نحبّ ونشتهي
لكنّها عند الكمال تقصّر
فاعذر صديقكَ إن كبا في هفوة
واخْلص له إنّ الصداقة جوهر
كلّ ابْنُ أُنثى لا محالة ناقصٌ
إنّ التجارب بالحياة تُبَصّرُ
فإذا امتحنتَ وخابَ فألك مرةّ
في خوض تجربةٍ وخانك معشر
أنتَ الكريم ولو أذوكَ بنارهم
فرمادُها بعد الخمودِ يطهّر
إنّ الخطيئة نحن كنه وجودها
من عهد (آدمَ) لم تزل هِيَ عنصر
كلّ البحار إذا اغْتسلتَ بمائها
تبغي الطهارةَ.. لا أظنّكَ تظفرُ
كم من خبيث صار خادم مسجدٍ
ومنافقٍ خلف الإمام يزوّر
فتجنّبوا غدر اللئام تجنّبوا
من كان معدِنُه الرخيص يؤجّر

لـــولا اختْـــلاف النـــاس فيمـــا بينـــها
مـــا كـــان طعـــم للحيـــاة يفسّـــر
فـــاجمع أواســـط مـــا تـــراه برحلـــةٍ
فيـــها الطريـــق إلـــى التعـــايشِ أيسَـــرُ
خمســـون فيـــها ذقـــت كـــلّ حـــلاوة
مـــازلتُ بعـــد مضيِّـــها أتـــأثّرُ
فـــإذا المواســـم أقفـــرتْ فـــي فـــترة
أو غـــاب عـــن عيـــن المولّـــه منظـــر
هـــزّوا بجـــذع القلـــب يغـــدقْ فوقنـــا
مـــا لـــذّ مـــن رطـــبٍ تســـرُّ وتســـكر
عـــادتْ إلـــى العـــهد القديـــم نفوسُـــنا
نشـــدو ونرقـــص والمزاهِـــرُ تنقـــر
مـــن كـــان أوّلـــه نقـــاء ســـريرة
لا بـــدّ آخـــره يطيـــب ويثمـــر
مضـــت الســـنينُ.. وقـــاربت أجلـــي بـــها
نحـــو النهايـــةِ. كيـــف لا أتحسّـــر
يـــا هـــول مـــا فعلـــت يـــداي ضلالـــةً
وتجـــارتي كـــم صـــرت فيـــها أخســـر
كيـــف الرحيـــل ومـــا حملـــتُ مؤونـــةً
عمّـــا ارْتكبـــتُ مـــن الذنـــوب تكفّـــر
يبقـــى مـــن اتْبـــع القناعـــة غانمـــا
أو كـــان فـــي ســـاح المصـــائب يصـــبر
ســـقيا لمـــن كشـــف الحقيقـــة أو رأى
مـــا لا يـــرى عنـــد الفراســـة مبصـــر
قومـــوا إلـــى الرحمـــن نســـأل عفـــوهُ
وعـــن الذنـــوب نتـــوب أو نســـتغفر
مـــا شـــاء ربّـــك فليكـــن بقضائـــه
أنـــي بمـــا يقضـــي علـــيّ سأشـــكر

دور الشعر في النضال الوطني حتى نيل الاستقلال في سورية ..؟!

بقلم:
محمد الزينو سلوم

كما هو واضح لنا جميعاً.. في أن الاستقلال لجميع الشعوب ضرورة حتمية ومصيرية لا بد منها لنيل حريتها والتخلص من نير الاستعمار والتبعية له مهما كانت دواعي ذلك.. والأمة العربية في الوطن العربي الكبير بعد اجتياح السلطنة العثمانية لأكثرها قروناً عديدة، هبّت في نهاية القرن التاسع عشر كالريح العاتية في روحها القومية تُطالب وتناضل بكافة الوسائل من أجل استقلالها وحريتها..

انطلقت سورية بشعبها نتيجة الوعي القومي كما ذكرت، واندفعت مطالبة بالإستقلال والتحرر مثلها مثل الكثير من الشعوب العربية الأخرى.. ولم ينفع العرب وقوفهم إلى جانب العثمانيين في الحرب العالمية الأولى ضد الحلفاء، وبدلاً من مكافأتهم قام السفاح جمال باشا بإعدام أول قافلة من قوافل الشهداء في ٢١ آب ١٩١٥م، ولما استمرّت الحركة العربي في النضال نفذ في ٦ أيار ١٩١٦ حكماً بالإعدام في كل من دمشق وبيروت بقافلة أخرى من الثوار منهم عبد الحميد الزهراوي، وشفيق العظم وآخرون.. كان هؤلاء يرددون وهم في طريقهم إلى أعواد المشانق:

نحن أبناء الألى
شادو مجدا وعلى
نسْل قحطان الأبى
جدّ كل العرب

وهكذا استمر النضال هنا وهناك، وكان للشعب السوري أثر بارز في الثورة العربية الكبرى فيما بعد.. والتي قادها الشريف حسين، ولم تنته مرحلة الحكم العثماني حتى بدأت مرحلة الحلفاء بدءاً من عام ١٩١٩ م وعلى رأسهم فرنسا وإيطاليا في تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو، ووضع الدول العربية التي كانت خاضعة للحكم العثماني تحت الانتداب، ثم تتالت الأزمات وجاء إنذار غورو ودخول القوات الفرنسية دمشق بعد معركة ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠، واستشهاد البطل يوسف العظمة، ثم تتالت الثورات في سورية مثل ثورة هنانو، وثورة الشيخ صالح العلي، وثورة جبل الدروز، وثورة حماه، وثورات المنطقة الشرقية بدءاً من ١٩١٩- ١٩٢٨ وهي ثوراة مسلحة، وبعدها جاء الكفاح السياسي من عام ١٩٢٨- ١٩٤٣ حتى كان الاستقلال والجلاء الذي نحتفل بذكراه في كل عام..

أعود إلى موضوع البحث بعد هذه المقدمة لأقول: أن الشعب في سورية حاله حال العديد من الشعوب العربية، لم يعط الاستقلال وإنما أخذه بالقوة، ومن خلال النضال والكفاح المسلح وغير المسلح، وقدم قوافل الشهداء قرباناً على مذبح الحرية.. وقد كان للأدباء وخاصة الشعراء منهم دوراً أساسياً في إشعال نار الثورات هنا وهناك طيلة هذه المرحلة من خلال الأناشيد والأغاني والقصائد الشعرية التي انطلقت كالزغاريد هنا وهناك.. ونظراً لعدم توثيق الكثير منها وخشية الضياع من المفيد والضروري نشر البعض منها، ولو كانت غير كاملة، للتذكير بها كشاهد على ما قدمه الشعراء في أدب المقاومة في سورية حتى مرحلة الاستقلال.. منها ما قيل على لسان بعض الشعراء، ومنها ما قيل على لسان الثوار، ومنها على لسان المعلمين وهكذا تتوالى الزغاريد والأناشيد لنعزف ما قدّمه الأجداد من قبل لنيل الأستقلال والحرية على كافة الأصعدة.. ومنها الأدبية.. وهي بالتالي نداء عام للجماهير والأدباء في سورية لتوثيق مثل هذه الأناشيد والأغاني والأشعار لتكون النبراس الذي يضيء الطريق للأجيال المقبلة خوف ضياعها في المستقبل.. وبالطبع فإن لكل نشيد مناسبته، ولكل قصيدة شاعرها.. ولكن مع الأسف فليست المعلومات التي في يدي من وثائق "أناشيد وأغاني وأشعار" موثقة تماماً وبالتالي لا يمكن معرفة أصحابها بالشكل الدقيق، وهي مجرّد نماذج تشكّل بمجموعها سيمفونية غناها الأجداد من خلال النضال والتضحيات التي قدّمت آنذاك.. فلكل نشيد أو أغنية أو مقطوعة شعرية مناسبتها وأسبابها.. وأولها ما قاله الثوار: يا ظلام السجن خيّم.. إننا نهوى الظلاما..

يوم الانتقام..؟!

إنّ هذا اليوم يوم الانتقامْ
فارفعوا الخطّي واستلّوا الحسامْ

أيها الكشاف بادر..؟!

أيها الكشّاف بادرْ
وارتق أوج العُلى

أطلـــبِ المجـــد وفــــاخرْ

كــــي تنــــال المـــأملا..

لا تَراقـــــــي للمعــــــالي

دون جـــــدٍّ واجتـــــهادْ

ســـــرْ إلـــى أوج الكمــــالْ

لتعـــشْ فيــــكَ البـــلادْ..

إيه سورية الحبيبة..؟!

نــــادتِ الأوطــــان هيّــــا

نحــــو رايـــــات العُلـــــى

واجعلــــوا المــــوت شــــهيّا

فـــــــي ســــــــبيلي أوّ لا..

إلى أن يقول :

إبذلـــــوا الــــروح فداهــــا

لا تضنّــــــوا بثمـــــــنْ

وادفعـــــوا عنــــها عداهــــا

وارفعـــــوا شــــأن الوطـــــنْ..

أهلاً.. اهلاً..؟!

أهـــلاً بمـــنْ ، أهــــلاً بمـــنْ

قــــد طوّقونـــــا بـــــالمننْ

فــــهكذا يـــــا صـــــاح مــــن

يسْـــعى لإحيـــاء الوطـــنْ..

يـــا أيــــها المجــــد اتحــــدْ

وبالمعـــــــارفِ اجتـــــــهدْ

عـــن جهلـــه مـــن لـــم يَجِـــدْ

يكـــنْ أســـيراً للمحـــــنْ..

الشهداء..؟!

أبتِ المنايا أن تـــذوق المنامـــا

والمنايـــا تغتـــال منـــا الكرامـــا

كم شهيدٍ فوق الــــتراب طريـــحُ

ويتامى تلقى الردى والأيـــامى..

إيه يا ابن العُرْب..؟!

يا ابن العُرْب ، يا ابن الأكرميـــنْ

كنتَ في مجدكَ وضّاء الجبيـــنْ..

إلى أن يقول:

من يحبّ العُرْب أن يهوى الوطنْ

يطلبُ العلم ولا يخشـــى الوِهـــنْ

إذْ بغير العلم لا تُمحـــى المحـــنْ

فإلى أهل النهى، أهـــل الفطـــن..

صغتُ قولي فلتُجيبوا مُسرعينْ

الله محبٌّ نعهدُه.. ؟!

العلـــم كشـــمسٍ مُشـــرقةٍ

يـــهدي الإنســـان وتُسْـــعده

إن ضـــلَّ رفيـــقٌ ننصحـــهُ

بلطيـــف القـــول ونُرْشـــدهُ

الحقـــد ترانـــا نجهلـــهُ

والكـــذب عـــدوٌّ نطـــردهُ

فجمـال النفـس فضائلـها

والصـدق مثـال نـورده

ونلاحظ بعد قراءة مثل هذه الأناشيد وتنوعها ومضامينها في أنها كانت تركـز على التضحية وحب الوطن والتفـاني مـن أجله وعلى نبذ الحقد والكذب وعلى طلـب العلم، وعلى التذكير بالأمجاد الغابرة، وعلى الشهادة في سبيل الوطن، بصوت الأحـرار والثوار والطلاب والكشافة.. بصوت الوطـن الغالي لبذل العطـاء والتضحيـات لإغنـاء الروح الوطنية والقومية، عنـد الجمـاهير العربية، ومثل هذه الأناشـيد يجدر بنـا الإهتمام بها وحفظها نظرا لأهميتـها كمـا ذكرت من قبل.. ولأنها منهجا للجماهير في عهد النضال العسكري والسياسي حتى نيـل الإستقلال وجلاء المعتدي والمستعمر عـن أرض الوطن..

يا ابن سورية تقدم

يـا ابـن سـورية تقـدم

واجنـي أثمـار العلـى

واسـتعد مجـدا قديمـا

صـار رهنـا للبلـى

طـال وقـت أنـت فيـه

خـامل بيـن المـلا

الشرق الأمين

يـا حمـى الشـرق الأميـن

لـك فـي قلبـي حنيـن

لـك إخـلاص مبيـن

وهـوى الأوطـان ديـن

عـز قومـي غـايتي

حـب أرض آيتـي

فلـترفرف رايتـي

ولـها فـي اليميـن

يا بلبل الأوطان

يـا بلبـل الأوطـان

غـرد علـى الأغصـان

عـهد الجفـا عفـا

والصفـا قـد حـان

قد زالت الأحزان

بالقنا والقضب

بالقنـا والقضـب

قـام مجـد العـرب

رايـة العـرب ارتقـي

فـوق هـام الشـهب

نشيد اليتيم

تلك أمي كفكفت خـرط الدمـوع

ولأجلي حرمت طيـب الـهجوع

لم تجد شمس هنائي في سـطوع

فقضـت فـي ذمـة الله القديـر

بني الشرق

لنـا وطـن بأنفسـنا نقيـه

وبالدنيـا العريضـة نفتديـه

إذا مـا سيلت الأرواح فيـه

بذلناهـا كـأن لـم نعـط شـيا

على الأخلاق خطوا الملك وابنـوا

فليس وراءهـا للعـز ركـن

أليس لكم بذي الأوطـان عـدن

وكوثرها الـذي يجـري شـهيا

رايتـي

أنـت كلـي لا تكلـي رفرفـي

حـول مجـد قوضتـه النائبـات

أفتديـه سـائرا فـي ظلـك

بسـلام أو جـهاد للعبـاد

سر بيمن الله

يا بني الأوطـان جـدوا بثبـات

وامتطوا للعـز متـن الصافنـات

فاخروا بـالعقل دومـا والنـهى

لا بمـاض أو طلـول خاويـات

واجعلوا دينكـم حـب الوطـن

فلعمـري حبـه أسـى الحيـاد

وادأبوا كـي تسـعدوه بـالعمل

لا بأقوال فمـا قـد فـات فـات

إلى أن يقول

جـددوا عـهد الـولا والإتحـاد

إن أردتم خـير نصـح ورشـاد

لـي دينـي ولكـم ديـن فـلا

تهدموا بـالدين أركـان الـوداد

شـهد الله بـأن الديـن مـا

كان يومـا حـائلا بيـن العبـاد

وإذا مـا فـرق الديـن فـها

كلنـا يجمعنـا حـب البـلاد

نشيد الأمل

سـائلوا عنـا العصـور الأولا

يوم فقنـا النـاس مجـدا وعـلا

يـوم قدنـا بـالعوالي الـدولا

سـائلوا عنـا بطـون الكتـب

سائلوا الشام ومصـر والعـراق

وسواها، سائلوا السـبع الطبـاق

سائلوا الأسياف والسمر الرقـاق

وسواها مـن رواسـي الحسـب

شعر العندليب

سـمعت شـعرا للعندليـب

تـلاه فـوق الغصـن الرطـب

والعيش لـي فـوق الغصـون

لا فـي قصـور أو حصـون

أطـير فيـها، لفـرط وجـدي

مـن غصـن ورد لغصـن ورد

وفـي فـروع الأشـجار بيتـي

فـالظل فوقـي والزهـر تحتـي

وسل بشــدوي زهــر الريــاض

إنــي بحكــم الأزهــار راضـــي

يــا قــوم إنــي خلقــت حـــرا

لا أرضـى إلا الفضـــا مقـــرا

فــإن أردتـــم أن تؤنســـوني

ففــي المبــاني لا تحبســـوني

وإن أردتـــم أن تنطقونــــــي

فــــاطلقوني، فـــــأطلقوني..؟!

درس، درس، درس

ســــاعات البـــوح يرتبــــها

عقـــل، وتنظمــــها شـــــمس

بـــالدرس بدأنـــا فـــي كتـــب

درس، درس، درس، درس

شاهدت الشمس وقد طلعت

شاهدت الشـــمس وقـــد بزغـــت

فعجبـــت لمنظرهــــا الحســـن

فســـألت الشـــمس لمـــا طلعـــت

قـــالت: كيمـــا تحيـــي وطنـــي

ورأيـــت البـــدر وقـــد أشـــرق

فجـــلا ظلـــم الليــــل الدجـــن

فســـألت البـــدر لمـــن يعشـــق

فشـــكى وبكـــى حـــب الوطـــن

شبوا على الخصم اللدودة

شـــبوا علـــى الخصـــم اللـــدود

نـــار الوغــــى، ذات الوقـــود

فمـــا لنـــــا فـــي ذا الرقـــاد

مـــن عـــاش ذلا، لا يســـود

يـــا أيـــها العـــرب الكـــرام

إلـــى متـــى أنتـــم نيـــام

قومـــوا إلـــى المـــوت الـــزؤام

وامشـــوا لـــه مشـــي الأســـود

يــــا آل قحطـــان الأولــــى

المجـــد عاشـــوا والعــــلا

مـــا بـــالكم عدتـــم بـــلا

عـــز ، ألســـتم فـــي الوجـــود؟

سير الكشاف

طاب لي التسيار ما بين الربـــى

ونفـــى عنـــي شـــذاها النصبـــا

علي أن يقول

لا ينـــال المجـــد إلا بالوئـــام

فاجمعوا الأمر وســـيروا للأمـــام

لا تراعوا من خطوب أو محـــن

تتوالـــى كيفمـــا شـــاء الزمـــن

فرقة الطلاب

فرقة الطـــلاب لا تنـــوي ســـوى

أن تعيـــد اليـــوم مجـــدا ضيعـــا

بثبـــات واتحـــاد دائـــمٍ

طالما بالمجد يرقــى مــن سـعى

إن وردنا منــهلَ المجـد فلــن

نــترك المنــهل حتــى نشــبعا

قد نوينا اليــوم أن نحيـا فــلا

نرتضي غــير الثريـا موضعـا

لا نُبــال بخطــوب طالمـــا

في ظلال المجـد نسـعى أجمعـا

رثاء الملك فيصل

فـــي ذمـــة الأوطـــان

والمجـــد يـــا فيصـــل

نـــم نـــاعم الوجـــدانْ

مـــن مجـــدك الأمثَـــلْ

نـــم مســـتريح البـــال

فـــي الخلـــد يـــا فيصـــلْ

قد صحّ العزم

قد حصحصَ الحقُّ لاحقٌ ولا زممُ

ولا عهودَ لكم يــا قــوم تحــترمْ

إن العهود إذا لــم تَرْعــها دُولٌ

فالسيف يثبتها والحــزم والــهممُ

فيم القعود على ضيم يُــراد بنــا

وموطن العرب بين الغرب يُقتســم

لبلادي في فؤادي

لبـــلادي فـــي فـــؤادي

نـــار وجـــدٍ وشـــجون

أفتديـــها بتـــلادي

وأفيـــها بـــاليمين

إننـــا قـــوم عُرفنـــا

بيـــن كـــل الكائنـــات

هـــامت الأرواح منّـــا

فـــي عنـــاق المكرمـــاتُ

عـــادة العـــربْ الكـــرامْ

أن يجـــودوا بـــالنفوس

كـــي ينـــالوا فـــي الوئـــام

رتبـــةً فـــوق الشـــموسْ

أرض الشآم

لـــك يـــا أرض الشـــآمْ

مـــهبط الوحـــي المجيـــدْ

مـــن فـــؤادٍ مســـتهامْ

خـــالص الحـــب الأكيـــد

هـــاج فـــي النفـــس حنينـــا

ذكـــر أيـــام الجـــدودْ

فجّـــرِ الدمـــع ســـخيّا

كالدمـــا فـــوق الخـــدودْ

لغة العرب

لغـــة العـــرب اذكرينــــــا
واندبـــــي مـــــا فـــــات
كيــــف ننســــاك وفينــــا
نســــمات مـــــن حيـــاة

لك سورية السلامة

لـــك ســـورية الســـلامة
وســـــلافا يـــــا بـــــلادي
إن رمـــى الدهـــــر ســـهامه
أتقيـــــــها بفـــــــؤادي
فاسلمي في كل حين

الأخلاق الفاضلة

نعمــن بنفســـي وأشـــقينني
فيـــا ليتـــــهن ويــــاليتني
خلال نزلـــن بخصـــب النفـــوس
فرويتــــــهن واظمـــــأنني
تعـودن فيــى إبــاء الكريـــم
وصـــبر الحليـــم وتيـــه الغنــــي
وعودتــــهن نـــزول الخطـــــوب
فمــا ينثنــــي ومـــــا أنثنــــي
إذا مـــا لـــهوت بليـــل الشـــباب
أهيـــن بعزمــــي، فنتــــهنني
فمـــازلت أمـــرح فـــي قدهـــن
ويمرحـــن فـــي بروضـــة جنـــي
إلى أن تولـــى زمـــان الشـــباب
وأوشـــك عـــودي أن ينحنـــي
فيا نفس إن كنيتـــي لا توقفنـــي
بمعقـــود أمــــرك فاســـتبقني
فهذي الفضيلة ســجن النفـــوس
وأنـــت الجديـــرة أن تســـجني
فـــلا تســـألني متـــى تنقضـــي
ليـــالي الإســـار فـــلا تحزنـــي

يوم الروع

نحن يوم الروع أنصار الوطـــن
نبـــذل الأرواح مـــن غـــير ثمـــن
همنا الســـؤدد والذكـــر الحســـن
لا نبـــالي بصـــروف أو محـــن
نتلقى البأس بالبأس الشديد
مرحبا بالموت في نيـــل العلـــى
حبـــذا الحمـــد لا ســـم بـــذلا
مـــن يحقـــق للبـــلاد الأمـــلا
ثم يقصـــف غضـــه ريـــب البـــلا
فهو في الدنيا وفي الآخرى شهيد

نحن كالبنيان

نحـــن كالبنيـــان جســـم واحـــد
كـــل فـــرد خــــادم للمجتمـــع
بقلـــوب مـــن حديـــد وأمـــل
قـــد عرفنـــا أن ننـــال المقصـــدا

وبـــايد ذات بـــذل وعمـــل

قد شـــرعنا واســـتطبنا المـــوردا

فتاتي

نحن زهر العلم في روض العمـل

نحـــن للأوطـــان غايـــات الأمـــل

لا تبالي يا فتاتي بالملل

واعملي فـــالله يجـــزي العمـــلا

وانهضي بـــالعلم تحيـــي الأمـــلا

إن روض العلـــم يزهـــو

بفتـــــاة وفتـــــى

وبـــه يعلـــو ويســـمو

فـــوق هـــام النـــيرات

وبه نعتز ما بين الملا

هاج في النفس الشجن

هـــاج فـــي النفـــس الشـــجن

طـــائر فـــوق فنـــن

ينـــدب القـــوم وهـــم

فـــي خمـــول ووســـن

يـــا بنـــي العـــرب كفـــى

مـــا أتينـــا مـــن محـــن

فـــاعقدوا نيـــاتكم

ترفعـــوا شـــأن الوطـــن

حســـبكم أن قـــد غـــدا

مجدكـــم يبكـــي الجـــدود

وينـــادي ويحكـــم

أرجعـــوا مـــاضي العـــهود

هـــذه الأمـــم

يـــا ذوي الـــهمم

عقدهـــا انتظـــم

فاشـــحذوا الـــهمم

واسلكوا نهج الصعود

هذي رؤوس الروابي

هـــذي رؤوس الروابـــي

أضحـــى يواريـــها الســـحاب

والشـــمس كـــالتبر المـــذاب

فلنمـــش لا نخشـــى الصعـــاب

فلنســـر

يا نشأة الشرق

هللـــي هللـــي هللـــي

يـــا نشـــأة الشـــرق

يـــا نشـــأة الشـــرق العلـــي

هللـــي واعملـــي

للشـــرق كـــي يعتلـــي

فـــي عصـــره المقبـــل

ويرى في المكان الأول

مصـــدر النـــور قديمـــا أرضنـــا

والحضـــارات أقمنـــا ركنـــها

ملأ الدنيا جمالا فننا

فاستمدت كل دينا فنها

ها أجب داعي الوطن

هيا أجب داعي الوطن

واجعل له النفس فدا

فإن خير الناس من

يسعى لإحياء الوطن

هذا الوطن

عار علينا أن ننام

ونضيع مجدا لن يضام

هبوا ولو ذقنا الحمام

بالروح تغدي ذا الوطن

نشيد الوطن

وطن يرف هوى على شبانة

كالروض رقته على ريحانه

هو نظم حليته وجوهر عقده

والعقد قيمته يتيم جمانه

يرجو الربيع بهم ويأمل دوله

من حسنه ومن اعتدال زمانه

من غاب منهم لم يغب عن سمعه

وضميره وفؤاده ولسانه

ولقد صدقتم هذه الأرض الهوى

والحر يصدق في هوى أوطانه

هيهات ينسى بذلهم وأرواحهم

في حفظ راحته وجلب أمانه

يا مربض الشم الأسود..

يا مربض الشم الأسود

هل أقفرت منك الربوع

ما للعلى عنك تحيد

هلا لها فينا طلوع

يا مهبط العز التليد

يا هبة المجد الوطيد

يا هزة العرب الحماة

قد تألم خطب شديد

فاستعذبوا كأس المماة

فالحر خفاق البنود

هلا سمعتم من يصيح

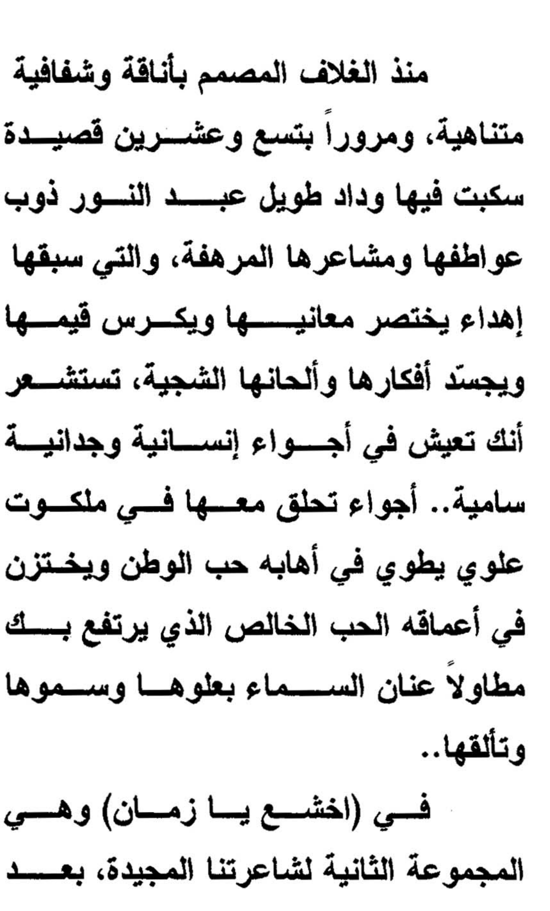
المجد يصرخ بالبنين

من ذا يجيب ندا الجريح

أوهل قضى أسد العرين

إنى فدا عز مشيد

وهكذا نجد من مضامين هذه المقطوعات الشعرية والأناشيد والأغاني مدى الدور النضالي المسلح والسياسي التي خاضته الجماهير العربية وخاصة في سورية الحبيبة.. وقد حفظها الصغار والشباب والكبار والثوار عن ظهر قلب، وكانوا يرددونها في مدارسهم وفي معاقلهم وفي مسيراتهم ومظاهراتهم العارمة، تعبيرا عن غضبهم وسخطهم على المستعمر الأجنبي، ولعلنا نحفظها نحن أيضا حرصا على وطننا وقوميتنا العربية التي تتعرض للغزو والعولمة من قبل مصاصي دماء الشعوب.. ليبقى الوطن صامدا كالطود في وجه المعتدين..



اخشع يا زمان نفثات وطنية وجدانية

بقلم : غسان كلاس

منذ الغلاف المصمم بأناقة وشفافية متناهية، ومروراً بتسع وعشرين قصيدة سكبت فيها وداد طويل عبد النور ذوب عواطفها ومشاعرها المرهفة، والتي سبقها إهداء يختصر معانيها ويكرس قيمها ويجسّد أفكارها وألحانها الشجية، تستشعر أنك تعيش في أجواء إنسانية وجدانية سامية.. أجواء تحلق معها في ملكوت علوي يطوي في أهابه حب الوطن ويختزن في أعماقه الحب الخالص الذي يرتفع بك مطاولاً عنان السماء بعلوها وسموها وتألقها..

في (اخشع يا زمان) وهي المجموعة الثانية لشاعرتنا المجيدة، بعد رسائل حنين، يخشع قلبك وتهفو نفسك أمام نسيج من الكلمات والجمل أحكم ربطها بإتقان بالغ بعيد عن الصنعة، قريب من الطبيعة التي تتوحد وتوق النفس، فتغدو ألحاناً تسري في الأعماق تستثيرها وتستفزها، في جانبها الوطني، وتشف لتذوب فيها، وتذوب معها، في جانبها الوجداني..

يحق لشاعرتنا الملتزمة بحب دمشق، أن تهيم وجداً فتسجد فوق تربها المعجون بالبطولات والأمجاد تقبله

وتمجده، ولم لا ودمشق كانت ومازالت وستبقى مهوى الأفئدة وملتقى المحبين، تزهو بقاسيونها وتشمخ بأبجديتها وتتيه فخراً واعتزازاً بحضارتها وأوابدها:

فلولا الشام ما اخضلت كروم

ولا انساحت معتقة مدام

يحق لشاعرتنا أن تهيم بحب دمشق، صانعة الحضارات، التي تهب الخير من شرفة مجدها ليحملها إلى مرابع الأجداد والخلان ليعم العالم، وتزدهي به البلدان متوجاً بأكاليل الغار والفخار:

من جاوز الشمس إشراقاً ومعرفة

غير الأوائل من نجد وغسان

يحق لشاعرتنا أن تفخر بتشرين التحرير، الذي رسم في قرص الشمس أمجاده ومفاخره مستلهمة بطولات حطين مستنهضة الهمم لنجدة القدس السليب..

وتذرف الشاعرة دموعاً حرى على بردى، وريد دمشق، ومنهل الخيل ونبع الطيوب، الذي غاله الدهر الخؤون؛ فجف ماؤه وخبا رونقه وبات الصفصاف حزيناً لحاله:

أين الربيع، لم الضفاف في حزن

غطى الضباب جبين الشمس واحتشدا

ويعتصر قلب الشاعر أسى لوفاة قائد الشام الكبير، الخالد حافظ الأسد، رجل المواقف والصمود، ولكن لا يلبث أن يشع في جنبات نفسها الأمل بتولي الرئيس بشار دفة القيادة:

ولن نخشى المصاعب إن أطلت

فأنت بنهج والدك التزام

ولا يقتصر التزام شاعرتنا في حدود الوطنية، قطرياً، بل يتجاوزه لتعيش فرحة تحرير الجنوب اللبناني فتنظم قصيدة تمجد من خلالها، بطولات رجال الجنوب والتضحيات التي حققت الانتصار الكبير:

إن الشعوب إذا ما اشتد ساعدها

مهما استبد طغاة الأرض تنتصر

جرد حسامك (نصر الله) ثانية

القدس ثكلى كذا الجولان ينتظر

ولا يفوتها، في الإطار نفسه، أن تكبر، في قصيدة ثانية، ثورة الحجارة، التي بات الطفل الفلسطيني وهج حروفها يغني النضال على يديه ويغرد:

وليكتب الشعراء فوق ضريحه

طفل تأبى، لم يهن، فاستشهدا

وكما في قصائدها الوطنية، التي تمتد لتسع الوطن العربي بأكمله، فهي في

وجدانياتها لا تقتصر على هدهدة رضيع ومناغاة طفل، بل تتبع على قصيدها السمة الإنسانية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى: تقدس الأم، وتقدر الزوج، وتبزر مناقب الكبار، وتثني على المبدعين من الأدباء والفنانين الذين يمنحون من فكرهم وعواطفهم ومشاعرهم غذاء للروح يشفي النفس ويسمو بها نحو العلاء.. فهي في مناجاة الأم، التي تعطي الدفء من قلب الصقيع، تتمنى على الزمان أن يخشع أمام مثواها ويسفح الطيب ويروي التراب الذي أواها، لأنها حيثما حطت خطاها ينبت الزهر:

سرها سر إله
خط في لوح القدر
كيفما امتدت يداها
فانهمار الأقحوان
ذاك سر الأم
فاخشع يا زمان

والزوج، الذي من وحي حبه صاغت شعرها، ومن تحنانه داوت جرحها:

ألقيت ظلك في بيداء خافقتي
وما رضيت مدى عمري له بدلا

وفي تقديرها للأدب والفن تنظم أكثر من قصيدة تؤكد - من خلالها - على دورهما المميز في صنع الحياة. تقول في ختام قصيدة، أثناء تكريم خريستو نجم:

ويغزل الليل أقماراً ملونة
تبارك الشعر والإبداع والقلم

وتقول في قصيدة مهدات للفنان عبد الرحمن جبقجي:

من أسكر الورد حتى ذاب من عبق
وفجَّر الآه في قلبي ووجداني
يا مبدع اللحن كيف اللحن تنسجه
أمن تعانق أنسام بريحان
أم شعلة الوحي قد سالت على وتر
تبارك الوحي في أوتار فنان

وفي الحفل التأبيني الذي أقيم لمناسبة وفاة رئيسة النادي الأدبي النسائي تعبر بمنتهى الوفاء والإخلاص قائلة

يا قدوة خط الزمان بصدرها ألفي كتاب
يا زهرة ألقى الإله بثغرها الشهد المذاب
سّواك من حلو الجنى كالخمر في كأس الشراب
كنت الثقافة والغنى والفكر والرأي الصواب

ولا أزعم أني أتيت - بمقالتي هذه- على قلائد المجموعة جميعها، وإنما هي إضاءات على وجدانيات ووطنيات ألمحنا إلى بعضها. وحسبي أن اختم بتقريظ الشاعر الكبير مدحة عكاش: وأرى أن الشاعرة وداد طويل كلما أوغلت في دروب الشعر تزداد صدقاً في عاطفتها وإرهافاً في شعورها.. وشفح هذه العاطفة أسلوب مشرق واضح يعتمد إشراقة العبارة سواء كان وطنياً أو وجدانياً..



لقد اهتم المسلمون ببناء المساجد وعمارتها منذ صدر الإسلام، فكانت في بدايتها بسيطة لا زخرفة فيها، ولكن في العصر الأموي والعصر العباسي وما تلاهما، بدأ الخلفاء والأمراء يعتنون بالمساجد تشييداً وزخرفة وتجديداً، حتى غدت تلك المساجد روعة من روائع الفن المعماري.

وما من مدينة فتحها الجيش الإسلامي إلاّ وأسس فيها الأمير مسجداً جامعاً، يكون منطلقاً للجهاد والدعوة، ومكاناً للعبادة وطلب العلم.

واشتهرت عدة مدن بمساجدها، مثل الجامع الأموي بدمشق، وجامع عقبة بن نافع، وجامع الزيتونة في القيروان في تونس وجامع الأزهر في القاهرة.

ولقد لفتت هذه المساجد أنظار العالم، فأمّها السُّيّاح من كل مكان للإطلاع على ما فيها من رقي حضاري، وكُتبت المؤلفات في تاريخها ومظهرها وبنائها وزخرفتها ومآذنها وقبابها، ودورها في حياة المسلمين.

فكتب الدكتور حسين مؤنس كتاب "المساجد" الذي أصدره المجلس الوطني للثقافة والفنون في الكويت ضمن سلسلة عالم المعرفة رقم ٣٧ .

والفت عدة كتب عن الفن الإسلامي تحدثت عن المساجد، مثل كتاب (الفن الإسلامي) لعفيف بهنسي، طبعته دار

طلاس- دمشق - عام ١٩٨٧ م ، و (موسوعة الفن الإسلامي) بثلاثة مجلدات أصدرتها مؤسسة الوحدة في الكويت، وثمة كتب أخرى تناولت المساجد مثل كتب العمارة الإسلامية.

إن هذه الكتب وقفت عند المدن الإسلامية ومساجدها وقلاعها، وأظهرت بالمعلومات التاريخية الموثقة وبالصور الموضحة القيمة الفنية والجمالية لهذه المعالم الأثرية الخالدة، ومن الكتب الهامة والفريدة في هذا الموضوع ما ألفته الدكتورة المهندسة (نجوى عثمان) .

حيث صدر لها كتاب بعنوان (مساجد القيروان) - دمشق - مطبعة دار عكرمة عام /٢٠٠٠م/ وعدد صفحاته /١١٦/ صفحة.

قسمت المؤلفة الكتاب إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول عن التاريخ العمراني لمدينة القيروان، والقسم الثاني قدمت فيه دراسة تاريخية وهندسية لجوامع القيروان وبدأت بالمساجد الثلاثة التالية: جامع عقبة بن نافع (الجامع الأعظم) وجامع الزيتونة، وجامع الباي (جامع الحنفي) ثم الجوامع التي تلتها حتى العصر الحديث، وخصصت القسم الثالث لوثائق جمعية الأوقاف المتعلقة بالمساجد الجامعة والمساجد الصغيرة، وموضوعات أخرى متنوعة، وأثبتت في نهاية الكتاب ملحقات تغنيه وتكمله، بالإضافة إلى ذلك ذكرت فهارس للمصادر والمراجع والجداول والصور والمخططات والوثائق، وفهرساً عاماً للموضوعات.

إن الدكتورة المهندسة (نجوى عثمان) نذرت نفسها لمثل هذه الدراسات والبحوث، فقد نالت الماجستير بتاريخ العلوم التطبيقية عام ١٩٩١ وموضوع البحث (الهندسة الإنشائية في مساجد حلب) ونالت الدكتوراه بتاريخ العلوم التطبيقية عام ١٩٩٨، وموضوع البحث (دراسة هندسية مقارنة بين مساجد حلب ومساجد القيروان) ، وطبع لها كتاب الهندسة الإنشائية في مساجد حلب - جامعة حلب ١٩٩٢ م وكتاب (حلب في مئة عام) (١٨٥٠- ١٩٥٠) في ٣ أجزاء - جامعة حلب ١٩٩٣ .

وما إن انتهت من أعمالها هذه، حتى توجهت من حب في سورية إلى مدينة القيروان في تونس لتكمل رحلتها مع مساجد الوطن العربي ولتسجل لنا معلومات ووثائق موضحة بالصور عن أهم المساجد في المغرب العربي.

إن الباحثة لم تكتف بالنقل من المراجع والإطلاع على المخطوطات، بل عاينت القيروان ومساجدها عن قرب، قالت عن ذلك في مقدمة الكتاب:

((قضيت أشهراً أتجول في حومات القيروان وأرباضها وأنهجها وأزقتها وزنقاتها، وزرت جوامعها ومساجدها مرات

عديدة، وسجلت ملاحظاتي الهندسية حولها، وأخذت مقايسات بعضها كنماذج، والتقطت الصور لعناصرها الهندسية المتميزة، فأنجزت بذلك الدراسة المبدئية للمساجد كلها التي بلغ عددها /١٢٣/ مسجداً واعتمدت في هذا كله على جهدي الشخصي، وعملت بمفردي بصمت وبشكل دائم ومستمر))

هذه الدراسة الميدانية، جعلت الكتاب يحتوي مضامين دقيقة في وصفه لتلك الآثار الخالدة التي بنيت في مدينة القيروان، وأضافت المؤلفة لدراستها الميدانية تاريخ المساجد حسب العصور التي مرت بها، وتضمن الكتاب تسعة عشر جدولاً في تاريخ المساجد وتطورها وخواصها الهندسية وغير ذلك من المعلومات، وتضمن مئة وثمان وأربعين صورة توضيحية للمساجد وما فيها وملحقاتها، وتضمن ستة وخمسين مخططاً هندسياً معمارياً لبناء المساجد وما فيها.

إن المؤلفة اختارت مدينة القيروان بالذات لما لها من مكانة في نفوس المسلمين، فهي مدينة عربية إفريقية، أنشأها عقبة بن نافع عام ٥٠ هـ / ٦٧٠م، وبني فيها المسجد الجامع الذي سمي بسمه.

لقد اهتمت الكاتبة بمساجد القيروان فأفردت لها هذا الكتاب الذي يعد الأول من نوعه، إذ إنه استقل بالكتابة عن مساجد القيروان كتابة ميدانية موثقة، تفيد المختصين وغير المختصين الذين يشدهم سمو الفن الإسلامي وروعته.

إن هذا الكتاب أغنى المكتبة التراثية العربية الإسلامية في هذا الجانب، فهو يتميز عن غيره بعدة ميزات منها:

١- أنه دراسة ميدانية قائمة على المعاينة والمقايسة.
٢- قد تضمن مخططات هندسية لا توجد في غيره.
٣- وتضمن مخططات وجداول بيانية وصوراً ملونة توضيحية.
٤- يعتني الكتاب بالوصف الهندسي والجملة الإنشائية.
٥- أُعِدَّ الكتاب بشكل منهجي فالمؤلفة عند الحديث عن مسجد من المساجد، تتبع الخطوات الرئيسية التالية: تقدم لمحة تاريخية عن المسجد، ثم تسلط الضوء على المسجد بشكل عام، ثم على أجزائه كالقبة والمحراب والمنبر والمئذنة وتتحدث عن السقوف والأقواس، وكل ما يتبع المسجد.

إن الكتاب يبرز عظمة الفن الإسلامي والعمارة الإسلامية مما يجعلنا نفخر بأولئك العباقرة الذين أشادوا لنا حضارة مادية ومعنوية، يقف لها التاريخ إجلالاً واحتراماً.

الرشد في المفهوم الإسلامي

بقلم الباحث :
راتب عبد الواحد

وردت لفظة (رشد) مع مشتقاتها في القرآن الكريم تسع عشرة مرة، نحو قوله تعالى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ) (البقرة/٢٥٦)

ونحو قوله تعالى عن الكفّار (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا) (الأعراف/١٤٦) ونحو قوله تعالى يصف حالة القطيع التي وصل إليها قوم فرعون الطاغية: (فاتبعوا أمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد) (هود/٩٧)

وقوله تعالى على لسان سيدنا لوط (عليه السلام) مستغرباً من الحالة الظلامية والجاهلية التي وصل إليها قومه: (.. أليس منكم رجل رشيد) (هود/٧٨) .

التعريف بالرشد لغة:

جاء في القاموس المحيط عن مادة (رشد) بمعنى : اهتدى، استرشد: طلب الرشد: فهو راشد ورشيد، وأرشده الله: أي هداه، وفي الحديث الشريف ((وارشاد الضال) أي: هدايته الطريق. وفي الحديث أيضاً : ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي)) . والرشد: نقيض الغيِّ، ورشد يرشُدُ، رشداً: نقيض الضلال. قال تعالى: (لعلهم يرشدون) (البقرة/١٨٦) والإرشاد: الدِلالة والهداية. والمرشد: الواعظ، والمراشد: المقاصد، بمعنى مقاصد الطرق. والأرشد: الأكثر رشاداً، وراشد ومرشد ورشيد ورشاد ورشدي: أسماء قال الرسول (صلى الله عليه وآله) لرجل: ((ما اسمك؟ قال : غيَّان، ، فقال بل رشدان)) .

وفي القرآن الكريم على لسان سيدنا موسى (عليه السلام): (ويا قوم

اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد) (غافر/٣٨) : أي : أهدكم سبيل القصد، وهو سبيل الله عز وجل الذي يخرجكم عن سبيل فرعون، الذي فيه الضلال والضياع، وفيه الظلم والظلام! (وما أمر فرعون برشيد) (هود/٩٧) وقال بعضهم: الرَّشَدُ أخصٌّ من الرُّشدِ، فإن الرَّشد يُقال في الأمور الدنيوية والأخرويَّة. والرَّشَدُ يُقال في الأمور الأخرويَّة لا غيرُ. والراشد والرشيد يُقال فيهما جميعاً، قال تعالى: (أولئك هُمُ الراشدون) (الحجرات/٧)

التعريف بالرشد اصطلاحاً:

الرُّشْدُ: كمال العقل وسداد الرأي، أو الفعل، وحُسْن التصرُّف.

قال تعالى: (فإن آنستم منها رشداً) (النساء/٦) . الرشد المؤنس من اليُتم.

التعريف به في القانون:

هي السن التي إذا بلغها المرء استقل بتصرفاته.

وفي الاقتصاد وترشيد الإنفاق : حُسْنُ القيام على المال وتوجيهه في خير سبيل.

من علامات الراشد:

١- الحلم والأناة: توأمان ينتجهما علو الهمة.
٢- الصبر عند المصائب وعدم الجزع في الشدائد.
٣- التحلي بالأخلاق الفاضلة: كالصدق والأمانة والحياء والسخاء والكرم والاستقامة . قال الإمام علي (رضي الله عنه) في نهج البلاغة: (التقى رئيس الأخلاق) !
٤- القناعة وعدم الطمع بما في أيدي الناس (الزهد) .
٥- العفاف والشكر، والورع عن محارم الله عز وجل.
٦- التوكل على الله تعالى بعد التعقّل في الأمور.
٧- العفو عند المقدرة والإحسان للمسيئين الذين يستأهلون ذلك، لا اللئام! وصنع المعروف للعالمين.
٨- الإنصاف والعدل والوسطية في كل الأمور.
٩- نصرة الحق وأهله والوقوف بوجه الظلم وأهله.
١٠- مصاحبة ذو الفضائل ومجالسة العلماء ومناقشة الحكماء وأهل الكمالات . قال الإمام علي (رضي الله عنه) لعامله الأشتر النخعي: يا أشتر أكثر من مجالسة العلماء ومناقشة الحكماء!!
١١- الإيمان بالله تعالى والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية (فمن اهتدى بهدى الله أرشده) .
١٢- حكيم في كل أموره وتصرفاته.
١٣- المشورة والحوار ركنان أساسيان في حياته. يقول سيدنا علي: (في الاستشارة عين الهداية) .
١٤- يتسع قلبه للرأي الآخر طالما صاحبه غايته الموضوعية والوصول إلى الحقيقة.
١٥- يبحث دائماً عن الحقيقة وعن الخير ليسلك دربهما ويدل الآخرين إليهما.

١٦- يتفقد أحوال أرحامه، ويصل المقطوع منها، ويعينهم على مصائب الدهر، لأن صلة الرحم تدر النعم وتدفع النقم، وتنمّي العدد، وتحرس النعم، وهي من أفضل شيم الكرام.

موقف الجن من الرشاد؟

إن الجن اعترفوا _كما أورد القرآن الكريم_ أنهم قاصرون عن معرفة مراد الله بالنسبة لأهل الأرض من البشر ومن خلال هذا الاعتراف نستدل على أن أحد معاني الرشد هو الخير الذي بعكس الشرّ، قال تعالى: (وإنا لا ندري أشر أُريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) (الجن/١٠)

وكذلك الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) أخبر أصحابه وأمته بأنه لا يضمن ولا يملك لهم الضر ولا الخير، لأنهما بيد الله عز وجل فهو النافع وهو الضار: (قل لا أملك لكم ضرّاً و لا رشداً) (الجن/٢١) .

(وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاّ هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير) (يونس/١٠٧) .

وأما الجن لما سمعوا آيات القرآن الكريم تتلى على لسان الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) بهرتهم آياته، واعترفوا بأنه يهدي إلى طريق الخير والصواب والحقيقة، قال تعالى مسجلاً هذا الاعتراف.. (..إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً) (الجن/٢) وأن الذي يُسلم لله ويستسلم للحق باحثاً عن سبيله فهو الراشد الناضج في عقله وتفكيره حيث يهمه ويشغله إدراك عاقبة أمره ومصيره وإلاّ ما أجهد نفسه بالبحث عن الحقيقة ولا سلك طريق الفلاح والنجاح (فمن أسلم فأولئك تحرَّوا رشداً) (الجن/١٤)

موقف الأنبياء والصالحين من الرشاد؟

رغم أن سيدنا موسى (عليه السلام) كان عالماً ونبياً، إلاّ أنه شعر بنفسه أنه بحاجة إلى المزيد من العلم والخبرة وفهم سنن الأمور والإحاطة بعواقبها، لأنه فوق كل ذي علم عليم: (وفوق كل ذي علم عليم) (يوسف/٧٦) لذلك طلب من العبد الصالح ـ الخضر (عليه السلام) أن يعلمه المزيد مما عنده ويفتقده، لكن العبد الصالح كشف له أن ذلك يحتاج إلى سعة في الصبر عالية وأن موسى (عليه السلام) يفتقد ذلك، قال موسى (عليه السلام) : (هل أتبعك على أن تعلمني مما عُلمتَ رشداً) فقال الخضر (عليه السلام) : (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبْرا؟) (الكهف/٦٨)

أما الذي لا يبحث عن الحقيقة وينحرف عن طريق الله المستقيم ويترك الوسائل الموصلة إليه كالكتب السماوية والرسل والعقل والعلماء، ولا يتفكر بآيات الله في ملكوته ولا يتفكر بآيات الله في نفسه، فمن أين يحصل على الصواب والرشاد؟: (ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً) (الكهف/١٧)

وقال تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه

الحق، أو لم يكفِ بربك أنه على كل شيءٍ شهيد) (فصلت/٥٣)

وأما أصحاب الترف، وهم الفتية الذين آمنوا بربهم وزدناهم هُدى فكانوا يدعون ربهم دائماً بقولهم: (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهي لنا من أمرنا رشدا) (الكهف/١٠)

والداعي المؤمن لا يهمه هداية نفسه ولا إصلاحها فحسب، بل يهمه إنقاذ الناس من الفساد والفوضى والظلام إلى طريق الاستقامة والسلام: وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) (غافر/٣٨)

وفي موضع آخر يبين الداعية الراشد طريقه ناصحاً قومه: (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) (غافر/٢٩)

موقف الرسول من الرشد؟

قام الرسول (صلى الله عليه وآله) بتعليم الناس وتربيتهم على الحكمة والرشد من خلال تعليمهم للقرآن وأحكامه ومن خلال حركته وممارساته ومواقفه وتجاربه، لكن الصحابة الكرام لم يكونوا كلهم على مستوى ذلك أولاً: لاختلاف العقول وثانياً: لاختلاف الطبائع وثالثاً: لاختلاف الذكاء ورابعاً: لاختلاف البيئة المحيطة بكل صحابي وخامساً: لاختلاف الزمن بين صحابي تقدم بالإيمان وسبق إلى الإسلام وبين آخر تأخر في إسلامه وإيمانه لسبب أو لآخر وسادساً: لوجود تيار جاهلي ومعادي يحرك ضعاف الإيمان والإسلام، ويشوش عليهم دربهم وطريقهم وعلى رأسهم المنافقين الذين قادوا حركة الردة أو كانوا من تياراتها الأساسية المضادة لتطبيق النهج الإسلامي وتجذيره في المجتمع بجميع أبعاده الثقافية والاقتصادية والسياسية والقضائية والعدلية، ولكن هذا لا يخلو من وجود أفراد من الصحابة الكرام يعيشون حالة الرشد الإسلامي بأبعاده كافة غير أن ذلك لم يكف لتكوين أمة راشدة وهذه حقيقة ينبغي الاعتراف بها أولاً، لتكوين مجتمع الرشد. إن وجود حاكم راشدي لا يكف لانتاج مجتمع راشد، فلا بد أن يكون العالم المُسلمُ راشدي، وأن تكون الأم المربيةَ راشدة والمرأة والرجل والطبيب والمهندس والتاجر والصناعي والفلاح والطالب والعسكري والاقتصادي راشدون.

لقد ترك الرسولِ (صلى الله عليه وآله وسلّم) نهجاً راشداً متمثلاً بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة (أقواله - أفعاله - تقريراته) كما ترك نماذج إنسانية فردية راشدة متمثلة بالخلفاء الأربعة (أبي بكر وعمر وعثمان وعلي) وجميع آل البيت عليهم السلام وهم (فاطمة الزهراء والحسن والحسين) وبعض الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) أمثال (عمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري وأبو الدرداء وأُبيّ بن كعب،) وفي هذا المجال يشهد الرسول (صلى الله عليه وآله) لأبي الدرداء بقوله: (إن لكل أمة حكيماً ، وحكيم هذه الأمة ابو الدرداء) .

ويشهد لسيدنا عمار بن ياسر بقول: (ابن سمية ـ عمّار ـ ما عُرِض عليه أمران قطّ إلاّ اختار أرشدهما)

وقد سُميَّ الخلفاء الأربعة بالراشدين لأنهم كانوا يستشيرون قبل أن يحكموا، أي يرجعون إلى أهل الرأي

والمشورة كالإمام علي (عليه السلام) وكل حكيم هو راشدي في طبعه!

والرسول أوصى المسلمين قبل وفاته بأن يلتزموا بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده وأوضح أنهم يتصفون بالهداية، حيث الهداية توصل إلى الحق وطريقه: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ).

وفي حديث آخر يقول الرسول: (تركت فيكم أمرين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي آل بيتي)

إن الضلال عكس الرشاد، والضلال يعني الانحراف والضياع، بينما الرشاد يعني الاستقامة والوعي والإدراك .

يعني أن يعرف الإنسان (ربه) ويعي (ذاته) ويدرك (ما حوله) ويبصر (عاقبة أمره) !

الرشد في عصر الخلفاء:

لكن المسلمين ــ وهذا من دواعي الأسف ــ لم يكونوا على مستوى هذا النهج الراشدي وهذه النماذج الراشدة، لذا نجد عقب وفاة الرسول بدأ نوع من النزاع السياسي بينهم حول الخلافة ثم جُبر النزاع بحكمةٍ من بعض الراشدين وإخلاصٍ مفعم بالإيمان وشعور كبير بالمسؤولية منْ قبل آل البيت بلغ ذروته عندما قال الإمام علي (والله لأسالمنَّ ما سلمت أمور المسلمين) إنها رؤية عميقة للواقع ولطبيعة الموقف. وحين بدأت حركة الردة حملت السيف ضد المواطنين فأفسدوا في الأرض فأضطرت الحكومة (الراشدية) للدفاع عن مواطنيها من القتلة فحاربتهم حتى قضت على شوكتهم، ويتميز عدم راشدية الأمة بأمر آخر هو حمل السيف ضد الشرعية الراشدة المتمثلة بخلافة الإمام علي (عليه السلام) .

إن تياراً إسلامياً كبيراً يمثل قطّاعاً واسعاً في المجتمع الإسلامي الفتي لم يتجذر الإسلام في فكره وطبعه وممارسته، فكانت العصبية للعائلة والمصلحة الدنيوية هي السائدة، وليس للنهج الراشدي.

أخذ هذا التيار ينمو على حساب الراشدية فساد الاستبداد بفروعه المختلفة على مجريات المجتمع الإسلامي (قمة وقاعدة) ولكي يستمر خطه اتخذ الاستبداد السياسي والاقتصادي ثوباً دينياً (فقهاء السلاطين) ليبرر شرعيته، ويخفف من ظهور خطره على القاعدة الواسعة من الجماهير.

إنها تجربة صعبة مرَّ بها المجتمع الإسلامي وعاشها المسلمون بعيداً عن روح الشورى وعن روح الراشدية.. ولكن يمكن توظيف هذه التجربة لصالح الحركة الإسلامية، فنتجاوز سلبياتها ونؤكد إيجابياتها ونطوّر هذه الإيجابيات من خلال التجارب الإنسانية الواسعة التي مرت بها جميع الأمم المتحضرة والخيِّرة، ومن خلال المخزون الفكري والثقافي لحكماء المسلمين وفقهائهم الكبار والأحرار. على مبدأ: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق؟!) (العنكبوت/٣٧) ومن خلال مبدأ التعاون: (وتعاونوا على البرِ والتقوى) ومبدأ الانفتاح : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) .

والحمد لله رب العالمين